إعجاز التركيب النحوي عند الزمخشري (بحث تطبيقيٌّ في الكشَّاف والمفصَّل)

د. حمدي علي بدوي أحمد (*)

الحمد لله حمد معترف بذنبه، و مقرٍّ بوحدانية ربِّه، و الصلاة و السلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد، صلى الله عليه و سلَّم، وعلى آله و صحبه . و بعـــدُ ..... فنُعنى البحث بالنقاط التالية:

أولًا: المقدمة: وفيها الحديث عن النقاط الآتية:

- **التعريف بالتركيب في اللغة، والاصطلاح .**
- **أبعاد التركيب النحوي .**
- **مستويات التركيب النحوي .**
- **التركيب النحوي وعلم النحو والدلالة والبلاغة**
- **المحور الأول: أنماط التركيب النحوي عند الزمخشري، وفيه:**
- **تراكيب وافق فيها جمهور النحاة .**
- **تراكيب خالف فيها الجمهور .**
- **المحور الثاني: مستويات القبول في التركيب النحوي، فيه:**
  - **الأبعاد النحوية للقبول في التركيب النحوي .**
- **التركيب النحوي بين الصحة والخطأ .**
- **التركيب النحوي بين الحسن والقبح .**
- **التركيب النحوي بين الجواز والردِّ .**
  - **الأبعاد الجمالية لقبول التركيب النحوي (أركان الإعجاز)، وفيه:**
- **التركيب النحوي والبعد النفسي .**
- **التركيب النحوى و أثر السياق .**
- **التركيب النحوى و اللذة الوجدانية .**
- **التركيب النحوي و التماسك الشكلي و الدلالي .**
- **رابعًا: خاتمة، و فيها:**
- **أهم ما توصل إليه البحث من نتائج .**
- **أهم ما يوصى به من مقترحات .**

والله أسالُ أن ينفع به

الباحث

(*) دكتوراه الدراسات اللغوية والنحوية وعضو وحدة قياس الجودة، والمحاضر التربوي العام بالأكاديمية المهنية للمعلمين بسوهاج.

أولاً: المقدمـــة:

تعدُّ دراسة التركيب لبَّ الدراسات اللغوية والنحوية؛ إذ تنطوي على دراسة الأشكال اللفظية، وما يجاوزها؛ وصولًا إلى عمقٍ، يعكس دلالة ما وراء تلك الصور الشكلية؛ وإسهامًا في قبول الدلالة أو ردِّها، بصورة كلية أو جزئية . لذا يظل التركيب اللغوي محور الدراسات النحوية وجوهرها؛ إذ تبدو فيه روح اللغة وديناميتها، كما يتضح – من خلاله – كثيرٌ من خصائص اللغة و ظواهرها وتقوم دراسة التركيب النحوي على بعدين، هما:

- **بُعد داخلي: يهتم بالعلاقات الداخلية للتركيب، وما يعتوره من تقديم و تأخير، و تعريف و تنكير، وذكر وحذف، وغير ذلك من تصرف تحريك القوالب، على ضوء من الدلالتين المركزية والهامشية؛ و ما قد يصاحبه من امتداد لعناصر التركيب، وما يتعلق بذلك من أحكام نحوية .**
- **وبعدٌ خارجي، يتجاوز ظاهر علاقات التركيب الداخلية إلى ما يُحيط بالتركيب من ملابسات خارجية، وظروف يؤدَّى فيها، وهو ما يُعرف بالمقام ومعطياته، من قصد المتكلم وحال المخاطب، وغيرهما.**

التعريف بالتركيب في اللغة و الاصطلاح:

- **(أ) - التركيب في اللغة:**

تدور مادة (ر، ك، ب): حول وضع الشيء فوق بعضه، أو تركيب الجزء في الكل، أو وضع الفرع في موضعه من الأصل، كالفص في الخاتم و نحوه . ([1]) جاء في الصِّحاح: ركَّبه تركيبًا: إذا وضع بعضه على بعض . ([2]) وذكر صاحب اللسان: تراكب السحاب، وتراكم النوى، إذا صار بعضه فوق بعض .([3]) وجاء في المعجم الوسيط: ركَّب الشيء: ضمَّه إلى غيره، فصار بمثابة الشيء الواحد في النظر، وركَّب الدواء ونحوه: ألَّفه من مواد مختلفة . ([4])

- **(ب) – التركيب في الاصطلاح:**

يقوم التركيب – فيه، أي: في الاصطلاح - على التلازم، إذ تُضم إحدى العناصر اللغوية إلى غيرها، لذا تُعدُّ الجملة هي أصغر مركب مفيد إفادة يحسن السكوت عليها، أي: مجموعة من الكلمات انضمت في معنى تام، والتركيب كالترتيب، لكن ليس لبعض أجزائه نسبةٌ إلى بعض تقدمًا أو تأخرًا . ([5]) ويقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ): إن الكلمتين – إذا رُكبتا، ولكل منهما معنى وحكم – أصبح لهما – بالتركيب – حكمٌ جديدٌ . ([6]) وقد ذكر الزمخشري أن الكلام: هو المركب من كلمتين، أُسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يأتي إلَّا في اسمين، كقولك: زيدٌ أخوك . وبشرٌ صاحبُك . أوفي فعلٍ واسمٍ، نحو قولك: ضرب زيدٌ، وانطلق بكرٌ . ويُسمى: الجملة .([7])

---

[1] انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى ١٧٥ هـ) تحقيق د: مهدى المخزومي، و د: إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام، ج ٥، العراق، (د . ت): ٣٦٤

[2] انظر: الصحاح للجوهرى، تحقيق: أحمد عبد الغفور عكار، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م: ١: ١٣٩

[3] لسان العرب،لابن منظور، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م: مادة (ر، ك، ب) .

[4] المعجم الوسيط، تأليف: عبد الوهاب السيد عوض الله و آخرين، (د . ط) مطابع الأفست، شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٩٨٥م، مادة (ر، ك، ب)

[5] انظر: التعريفات، للجرجاني، المتوفي (٨١٦ هـ)، تحقيق: نصر الدين تونسي، ط١، شركة القدس للتصوير، ٢٠٠٧ م: ٩٨

[6] نقلًا عن الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه: فقه اللغة المُقارن، (د . ط) م٤، دار العلم للملايين، ط ١٩٨٧م: ٤٦

[7] انظر: المفصَّل فى علم العربية،، لجار الله الزمخشري، دار الجيل، (د . ط) بيوت، لبنان، (د . ت): ٦

- **مستويات التركيب النحوي:**

ينقسم التركيب النحوي إلى مستويين، هما::

- **المستوى الأول: (مستوى الصحة) التركيب الصحيح:**

وهو: ذلك التركيب الذى يخضع لقواعد النحو و الدلالة، ويُراعي الحد الأدنى من أفق الانتظار لدى المتلقي، وهو ما سمَّاه سيبويه: المستقيم، حين عقد بابًا، عنوانه: (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة)، قال: " فأما المستقيم الحسن، فقولك: أتيتُك أمسِ و سآتيك غدًا . و أما المُحال، فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدًا وسآتيك أمسِ . وأما المستقيم الكذب، فقولك: حملتُ الجبل، وشربت ماء البحر، نحوه . وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ . ([1])

يُلاحظ من كلام سيبويه اعتماد التركيب النحوي على الدلالة، حتى لو تركت القوالب اللغوية مواقعها، تقدمًا أو تأخرًا، حذفًا أو ذكرًا، حيث إن مدار الأمر على التزام التركيب النحوي تمامَ الدلالة، ولا يحتاج ذلك النمط من التراكيب النحوية إلى صياغات فنية، ولا نمطًا خاصًا من المتلقين؛ ولا تعتمد خاصية الانتقاء للعناصر اللغوية، إنما تقوم على علاقة طرديَّة بين العناصر اللغوية في مواقعها وعلاقة كل عنصر بجاره، وكذلك طردية العلاقة بين الألفاظ والمعاني .

والمدقق فى مؤلفات الزمخشرى يجده مُصرًا على ما يُمكن أن نسميه: التركيب المستقيم الحسن، وهو: الذى يتم فيه التوافق بين العناصر اللغوية وهيئتها من جهة، وبين المعاني النفسية المُراد التعبير عنها بطريقة الأداء اللغوي من جهة أخرى، مراعيًا – في ذلك – البنية النحوية السليمة وسمو المعنى وجمال البلاغة . وهو: ذلك التركيب الذى تتضح معانيه، و يشف أسلوبُه عن مدلوله . ([2]) ومن ذلك جواز الفصل بين المتلازمين، المقسم به والمقسم عليه، وهو فصل صحيح سائغ، مشهور في ألسنتهم و أساليبهم .

يقول الزمخشري في قوله – تعالي: " فلا أُقْسمُ بمواقع النجوم . و إنَّه لقسم لو تعلمون عظيمٌ . ([3]): ([3]): " وقوله: " و إنه لقسم لو تعلمون عظيمٌ " . ([4]) اعتراض في اعتراض؛ لأنه اعترض به بين القسم و المقسم عليه، وهو قوله: " وإنَّه لقرآنٌ كريمٌ " . ([5]) واعترض بـ (لو تعلمون) بين الموصوف، وهي كلمة (قسم)، وصفته، وهي كلمة (عظيم) . ([6]) وإنه فصل لا يُخل بمقبولية التركيب التركيب النحوي، لأنه لا يُغيِّر الدلالة، ولا يُضعف العلاقة بين المتلازمين، وهو يحمل نكتة دلالية، وهي أن يُدرك المؤمنون عظيم قدرة الله – تعالي - في مواقع النجوم، فيصرف أنظارهم إلى التفكر في ذلك، والتركيب – على هذا التأويل – تركيب قوى، ترتفع درجة الإعلامية النصية فيه، لأن فيه إضافات دلالية، تسترعي الانتباه للتفكر والتأمل، وتمد المتلقي بشحنات وجدانية مكثفة .([7])

- **المستوى الثاني: (مستوى الجمال) التركيب الفنِّي:**

وهو ذلك التركيب الذى يُجاوز مستوى الصحة إلى مستوى الإبداع والجمال، وهو يصدر من مؤلِّف خاص لمتلق خاص، بخصائص أسلوبية أخص، وهو نمط من الكلام ليس مبتذلًا؛ ويتطلب فنونًا صياغية؛ تُخَصَّصُ لنوعية من الخطاب، الذى تتجسد فيه اللغة في مستوى انتقائي من القدرة على التحكم في النص؛ ومرونة في إحكام الصلة بين الألفاظ والمعاني، وتوظيفها في علاقات جديدة . ينشأ عنها القول البليغ لتحقيق الجودة والترابط والمقبولية، كالخطب، والأقاويل الشعرية، وما يجرى مجراها من فنون التأليف،لأن المنشغل بالفلسفة في حاجة إلى ضبط خطابه؛ فيتكئ على أدبية خطابه

---

[1] انظر: الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (ط: عبد السلام هارون) ١: ٢٥ - ٢٦

[2] انظر: البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري، د: محمد أبو موسي، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ: ١٦٠

[3] سورة الواقعة: ٧٥ - ٧٦

[4] سورة الواقعة: ٧٦

[5] سورة الواقعة: ٧٧

[6] الكشَّاف ٤: ٤٠٠

[7] انظر: الكشَّاف، لجار الله الزمخشري، شرح و ضبط و مراجعة: يوسف الحمادى، ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ٤: ٤٠٠ (بتصرف)

ليؤثر في متلقيه، فلا يجوز التجوز، ولا الخطأ ولا سوء التعليل فيه، ولا يُسمح له باضطراب خطابه ولا خلخلته .
فيُبين أن له قدرة على أخذ اتصالات المعاني بعضها بعض، ولو الاتصال اليسير، و أنّ عباراته وإبانته لا تزول، ولا تضعف، " وإن عبّر عن الشيء بغير لفظه الخاص به بل بلفظ غيره . وأما الاستعارة فلأن فيها تخيُّلاً وهو شعري ". ([1])
ومن المفيد الإشارة إلى أن للبنية السطحية دورًا حاسمًا في تحديد الدلالة وتوجيهها؛ وكأنها ممهد صوتي أو شكلي لدلالة البنية العميقة، إذ تختلف البنية السطحية وفقًا لاختلاف نمط التلقِّي، فحديث خالي الذهن يُباين حديث الذكي، وحديث المطمئن يباين حديث الجزع، وحديث صاحب الفطرة الحسنة المريد يُباين حديث النكر الجاحد . وهذه من أهم أبعاد التركيب النحوي الفنِّي .
جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " إنَّا إليكم مرسلون ".([2]) قال الزمخشري: " فإن قيل: لمَ قيل: " إنَّا إليكم مرسلون " . ([3]) أولًا . و" إنَّا إليكم لمرسلون " .([4]) آخرًا ؟ . قلت: لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جوابٌ عن إنكار . ([5]) وهو – بذلك – يُشير إلى أحوال المخاطبين، لذا فالحديث الأول بمؤكِّدٍ واحد، وهو(إنَّ) المكسورة الهمزة المشددة النون، لأنه موجه إلى متلقٍ غير منكر، فيكفيه الجملة الخبرية بعنصري الإسناد؛ المبتدأ و الخبر، أو الفعل و فاعله ([6])، أما الحديث الثاني فمؤكَّدٌ بمؤكدين، لأن الأمر – كما يقول الزمخشري – موجهٌ إلى متلق منكر، فاحتاج الخطاب معه إلى تكثيف المؤكدات، فجاء الحديث الثانى بمؤكدين، وهما: إن التوكيدية المكسورة الهمزة المشددة النون، ولام التوكيد التى لحقت الخبر، لتدل على أمرين:
الأول: تأكيد رسالة الرسول، من دون شك .
الثاني: إقامة الحجة على المنكرين الجاحدين . وكلام الزمخشري فيه إشارة إلى ضرورة أن يُخاطب المؤلف متلقيه بلغة يعرفها، و بتركيب يُراعي أفق انتظاره . ومثله قوله – تعالي: " هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون " .([7]) يقول:" فإن قلت:: إذا جعلت (ما) مصدرية كان المعنى: هذا وعد الرحمن، وصِدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق بالوعد والصدق، فما وجه قوله: (وصدَّق المرسلون) . إذا جعلتها موصولة ؟ . قلتُ: تقديره: هذا الذى وعده الرحمن، والذى صدقه المرسلون بمعنى، والذى صدق فيه المرسلون من قولهم: صدقوهم الحديث والقتال . ([8])

([1]) الحروف، لأبى نصر الفارابي، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدى، أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد، بحوث و دراسات رقم (٤٦) كلية الآداب و العلوم الإنسانية، بيروت لبنان، ط٢، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م،:٢٢٥

[2] سورة يس: ١٤
[3] سورة يس: ١٤
[4] سورة يس: ١٦
[5] الكشَّاف ٤: ٩، وانظر: لغة القرآن الكريم (دراسة في التركيب النحوي لسورة يس)، تأليف: صبري إبراهيم السيد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١ م: ٥٦
[6] و يجعل الزمخشري الإسناد رابطة معنوية بين طرفى الجملة أو التركيب، ولو تجرد الكلام من الإسناد (التعالق) لكان فى حكم الأصوات التى يُنعق بها غير مُعربةٍ، و لاختلت الدلالة بناء على اختلال العلاقة بين عناصر التركيب النحوي . انظر: المفصَّل: ٢٤
[7] سورة يس: ٥٢
[8] و مثله: احتمال مجيء الحال من الفاعل و المفعول فى تركيب نحوى واحد، كما فى قوله – تعالي: " و قاتلوا المشركين كافة) . سورة التوبة: ٣٦ . يقول الزمخشري: " (كافة) حال من الفاعل أو المفعول، أى: إن الآية الكريمة تحتمل أكثر من دلالة، كما يلى:
١- إن (كافة) حال من الضمير فى (قاتلوا)، والمعنى: قاتلوا المشركين كلَّهم .
٢- إن (كافة) حال من المشركين، و المعنى: قاتلوا المشركين كافة . انظر: الكشَّاف ٤: ٢٠، ٢: ٢٦٩

- **التركيب النحوي وعلم النحو والدلالة والبلاغة:**

يجب التأكيد – أولًا – على أنه لا تتوقف مهمة الأصول النحوية – بوصفها علمًا ضابطًا – علي تحديد المعيارية الضابطة للمواد اللغوية و دلالتها ([1])، وللمفردات سكونًا و حركة - إنما يُعتمد على النحو – أيضًا – في عرض أسرار التراكيب، والكشف عنها، ويوضح ذلك أبو سعيد السيرافي، حيث يقول: " معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ و سكناته، و بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم و التأخير، وتوخِّى الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ ".([2]) وفي كلام السيرافي إشارةٌ إلى دَور النحو في ضبط تحريك القوالب اللغوية بما يوائم الدلالات، ووفق معيارية اصطلاحية محددة، وهو ما تنادي به المدرسة التوليدية التحويلية، التي تعتمد على قدرة النحو على إنتاج عدد لا نهائيٍّ من الجمل؛ من خلال تحريك القالب النواة؛ بالتقديم أو بالتأخير، أو بالعلامة الإعرابية، أو بالحذف، أو بالزيادة، أو غير ذلك من صنوف التصرف الشكلي الدلالي .

كما جعل القاضي عبد الجبار سلامة الدلالة تعود إلى تألف العناصر اللغوية المكونة للتركيب، بدا ذلك حين عرَّف الفصاحة، بقوله:" إنها لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضَّمِّ، على طريقة مخصوصة، ولابد من أن تكون لكل كلمة صفة، و يجوز أن تكون بالمواضعة، التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب، الذى له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع ".([3]) ثم جاء عبد القاهر ليُغلِّب روح النحو و قدرته على تعيين خروق التراكيب و انحرافاتها، من حيث الموقع، والحركة، والدلالة، وجعل مدار التركيب النحوي و تشكيل هيكله في توخِّى معاني النحو، فيقول: " اعلم أنه ليس النظم إلَّا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه و أصوله، وتعرفَ مناهجه التي نُهجت؛ فلا تَزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تخل بشيءٍ منها ".([4]) وقد بسط عبد القاهر دراسته للنظم أو التركيب؛ بإشارته إلى أن الكلام يقوم على أشياء ثلاثة، هي: لفظٍ حامل، ومعني قائم، ورباطٍ لهما ناظم ([5])؛ فيقول: " و إذا أملتَ القرآن وجدتَ هذه الأمور منه في غاية الشرف و الفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا تري نظمًا أحسن تأليفًا، وأشدَّ تلازمًا من نظمه .([6])

والزمخشري ذو باع طويل في علم العربية، يعتمد في توجيهاته للتركيب النحوي ليس على نظرية العامل، بوصفها دستورًا، لا يجوز الحيدة عنه، بل على الاتِّساع في توجيه التراكيب، متحررًا أحيانًا من الخضوع لنظرية العوامل - سواء وافق ذلك ضوابطها أم لا، طالما سلمت السلائق، و عضَّد التأويلَ استعمالٌ، ووجهٌ من وجوه العربية، التي تجنح – عنده – إلى السلامة و صحة الأداء و الذوق . وقد برزت – في دراساته – قدرتُه على تحقيق الاتساع الدلالي، بإيراد الاحتمالات الدلالية المختلفة و المقبولة، و التي يعضِّدها الاستعمال؛ لذا كان يقلِّب الكلام أو التراكيب على ما تحتمله من أوجه، و لا يكتفي الزمخشري بوجه واحد، وهذا مما يدل على سعته وغناه، وعلى قدرته المتفردة على استدعاء المعاني المختلفة، دون أن يحصر الذهن في معنى واحد، قد يُردُّ .

---

[1] راجع في ذلك: النحو و الدلالة، د: محمد حماسة عبد اللطيف، ط١، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م: ٨٩

[2] انظر: شرح كتاب سيبويه (للسيرافي)، تحقيق د: رمضان عبد التواب، (د . ط) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م: ٢: ٧٨، و انظر: المختصر فى تاريخ البلاغة، د: عبد القادر حسين، ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م .: ٣١

[3] انظر: المغني في أبواب التوحيد و العدل، للقاضى عبد الجبار الهمذاني، تحقيق: محمود الخضيري، و محمود قاسم، مراجعة: إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٣٨٥هـ، ١٦: ١٩٩ - ٢٠٠

[4] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥هـ: ٨١

[5] انظر: علم اللغة الاجتماعي، د: كمال بشر، (د . ط)، دار غريب للطباعة و النشر، القاهرة، (د . ت): ٦٤

[6] انظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، (ط٤)، دار المعارف، القاهرة، (د . ت): ٢٤

كما في قوله – تعالي: " ن والقلم وما يسطرون " . ([1]) فنراه يميل إلى تفريعات الدلالة، مستقصيًا كل بُعد دلاليّ مقبول للتركيب، انظر إليه يقول: " و أما قولهم: هو الدواة – يقصد (ن) – فما أدري أهو وضعٌ لغويٌّ أم شرعيٌّ ؟ . و لا يخلو من أن يكون جنسًا أو علمًا؛ فإن كان جنسًا فأين الإعراب و التنوين ؟ وإن كان علمًا، فأين الإعراب ؟. وأيُّهما كان؛ فلابد له من موقع في تأليف الكلام . فإن قلت: هو مقسمٌ به وجب – إن كان جنسًا – أن تجرَّه و تنونه، و يكون القسم بدواة منكرة مجهولة، كأنه قيل: و دواةٍ و القلم، و إن كان علمًا أن تصرفه و تجرَّه، أولا تصرفه و تفتحه للعلمية و التأنيث . ([2]) وفي تحرُّر الزمخشري من بعض القواعد النحوية – أحيانًا – سبقٌ لما تُنادى به المدرسة التوليدية التحويلية الحديثة؛ من ضرورة ألَّا تخضع الدلالة للنحو خضوعًا مطلقًا؛ لذا فقد جعل تشومسكي النحو مستقلًا عن المعنى، و فضَّل أن يُصاغ علم القواعد؛ على أنه دراسة قائمة بذاتها، مستقلة عن علم الدلالة، حيث لا يُمكن أن تشخَّص فكرة القواعدية بالسيء الذى له معنى .

فقرَّر أن في ربط الدلالة بالنحو سلوكًا لأرض وعرة، لأن البنية النحوية يُمكن أن تزوِّدنا ببعض المعرفة عن مسائل المعنى و الفهم، إذما في الدراسة اللغوية من جانب عانى من الإرباك، و هو مجابهةٌ إلى التوضيح و الصياغة الدقيقة أكثر من ذلك الذي يُعالج مسائل الربط بين النحو و الدلالة.([3]) و إذا كان عبد القاهر قد عدَّ النحو معيارًا ضابطًا، و مُحققًا لسلامة النظم أو التركيب، فقد جعل النمط الحسن منه هو: ما يتحقق وفق المعاني و الأغراض؛ فإذا وُضع القصد في قالب واحد، و اتحدت أجزاؤه؛ فهذا هو النمط العالي من الصياغة، و هو ما يتحد في الوضع، ويدقُّ في الصنع، فإن عبد القاهر يُلزم المؤلف بالتدقيق في معانيه و ألفاظه؛ حتى تستطيع أن تجلوَ لك غرضَه وقصدَه، بل إنه قد تعمق في دراسة التركيب، حتى شبهها بمن يصهر لآليًا، يشدُّ بعضها بعضًا، مما يمنعها التفرق ".([4])

والتركيب عند الزمخشري بناءٌ سديدٌ، له من الأصول الفنية ما يُحسِّن إخراجَه؛ حتى يخرج الكلام مؤلَّفًا بعيدًا عن التنافر؛ فيلزم المؤلف تشكيلَ أسلوبه بقوة؛ عن طريق التحرِّي و الانتخاب لطبيعة - كنه - المواد اللغوية، التي تعبر عن المعني ذاته؛ لأن ثمة فروقًا بين لفظ و آخر، و عليه – أي المؤلف – أن يكفل لنصه قوة التماسك . ([5]) لأن الذى يُضيء دلالة التركيب، و يكشف مكنوناته، و يُساعد القارئ علي تذوقه؛ هو أن يأخذ الناقد بيد قارئه، و يُفسِّر له كيف تركب هذا البناء اللغوي الفنِّى، حتى استوى عملًا ذا دلالة خاصة، ويُبصره بمواطن الجمال فى هذا التركيب، و على المشتغلين بالنحو أن يقدموا – فى هذا الصدد – ما يُعين النقاد على أداء مهمتهم، بحيث ييسرون لهم السبل، و أن يتعاون دارسو العربية على كشف النصوص و تحليلها، متَّخذين من المعاني النحوية مُدخلًا لتناول النص الأدبي . ([6]) ([6])

ويشترط الزمخشري للتحرر من الأصول النحوية أن تتضح العلاقات النحوية بين المتجاورات فى تركيب واحد أو فقرة تركيبية أو نص بتمامه، و يشترط – مع وضوح العلاقات النحوية – أنها لم يُحط بها لبس؛ فإنه بإمكان المؤلف أن يُمارس قدرًا من الحرية . ومن المفيد الإشارة إلى أن الزمخشري – بعرضه هذا – يسبق علماء اللغة الغربيين، حين تحدثوا عن التحرر من الأصول القاعدية، لتعظيم دور الدلالة فى تحقيق التماسك على مستوى التركيب النحوى والفقرة و النص . فقد فطن الزمخشري إلى ما تقوم به إحالة الضمير من دور حاسم فى ربط أجزاء التركيب والنص، فمثلًا عند تفسير قوله –

---

[1] سورة القلم: ١

[2] الكشَّاف ٤: ٤٩٧

[3] انظر: البنى النحوية، تشومسكى، ترجمة، د: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، ط١، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م: ١٢٤ – ١٣٧ (بتصرف)

[4] انظر: دلائل الإعجاز: ٩٦-٩٩

[5] انظر: حديثه عن الأدوات الرابطة، و تماسك أجزاء الكلام، و حديثه عمَّا أسماه عبد القاهر: الصهر، فى مواضع متفرقة من كتابيه (الكشاف و المفصل)، على سبيل الاستشهاد – مثلًا – الكشاف ٣: ٦٧، و المفصل: ١٢٢

[6] انظر: اللغة و بناء الشعر، د: محمد حماسة عبد اللطيف - رحمه الله – ط١، دار غريب، القاهرة، (د . ت): ٢٥ - ٢٨

تعالي: " و استعينوا بالصَّبر و الصلاة و إنَّها لكبيرةٌ إلَّا على الخاشعين " . ([1]) يقول: " (وإنها) الضمير للصلاة أو للاستعانة، و يجوز أن يكون لجميع الأمور التى أُمر بها بنو إسرائيل، و نُهوا عنها، من قوله – تعالي: " اذكروا نعمتى ـــ إلى: و استعينوا " . لشاقة ثقيلة، من قولك: كبُر علىَّ هذا الأمر([2]) فنحن – هنا – أمام ثلاث إمكانات، هى:

الأولي: عود الضمير إلى الصلاة، وهى أقربُ من الاستعانة .

الثانية: عوده إلى الاستعانة، و فى كلتا الحالتين هناك تطابق بين الضمير (ها)، وبين المُحال إليه إفرادًا وتأنيثًا، مع كون الإحالة داخل نفس الآية . أما فى الإمكان الثالث؛ فإن الضمير (ها) يُحيل إلى خطابٍ سابقٍ يستغرق خمس آيات، تتضمن الأمور الآتية: ذكر النعمة، و الوفاء بالعهد، ورهبة الله، و الإيمان برسالة محمد، وألَّا يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وتقوى الله، وألَّا يلبسوا الحقَّ بالباطل، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسلوك سبيل البرِّ، وهي – كما ترى – تتراوح بين الأوامر والنواهى " .([3]) ويتحصل من كلام الزمخشري أن إحالة الضمير نوعان: إحالة إلى عنصر متقدِّم، وإحالة إلى خطابٍ سابقٍ .([4]) وهو الأساس نفسه الذى قُسِّمت على ضوئه أنماط الإحالة فى اللسانيات الحديثة .

المحور الأول: أنماط التركيب النحوي عند الزمخشري، و فيه:

(أ) - تراكيب نحوية وافق فيها جمهور النحاة:

أحيانًا يوافق الزمخشري ما ذهب إليه البصريون، من أن تحريك القوالب النحوية ينتج عنه تحريك الدلالة توسيعًا و تضييقًا، فلا يجد تحرجًا من موافقتهم، طالما لم يَمس ذلك اعتقاده، و طالما التزم صحة الأداء و سلامة الدلالة، و من ذلك:

- **القول بفاعلية ما يقع بعد (إن و إذا):** فقد جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " إذا الشمس كوِّرت " . ([5]) فإن قلت: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ قلتُ: بل على الفاعلية، ورافعها فعلٌ مضمرٌ يفسِّره (كوِّرت) لأن (إذا) يطلبُ الفعل، لما فيه من معنى الشرط . ([6])
- **جواز الفصل بين الموصوف و صفته بفاصل أجنبي:** لقد أقر النحاة عدم جواز الفصل بين الموصوف و صفته بفاصل أجنبي، و قد قصدوا بمصطلح الأجنبي: ما ليس بصفة، كلُّ ذلك حفاظًا على قرينة التلازم، و ما تؤديه من وضوح للدلالة، و تحقيقًا للترابط بين عناصر التركيب النحوي .([7]) و قد أيَّد الزمخشري تلك القاعدة، التي تخدم صحة الدلالة، و لكنه قال بتقييدها، و علل لذلك بأمرين:
- الأول: أن ما يفصل بين الموصوف و الصفة ليس أجنبيًا، إنما هو مسوقٌ لتمام الدلالة، أو لتفصيلها، أو لإضافة معنى دلالي أو نكتة بلاغية .
- الثاني: أن ذلك الفصل يكون – غالبًا – محكومًا بالضرورة . و قبلوا ذلك في النمط الرفيع من الكلام . فقد أجاز الفصل بين الموصوف و الصفة بمعمول الصفة، في قوله – تعالي: " إن امرؤٌ هلك ليس له ولدٌ . ([8]) فقد أجاز الفصل بين الموصوف، و هو كلمة (امرؤٌ)، و الصفة، و هي جملة جملة (ليس له ولدٌ)، بالجملة الفعلية، التي تبدو أجنبية، و هي (هلك)، يقول: " ارتفع (امرؤٌ)

---

[1] سورة البقرة: ٤٥

[2] الكشاف ١: ١٣٨

[3] انظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، د: محمد خطابي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م: ١٧٣

[4] انظر: نحو النص فى ضوء التحليل اللسانى للخطاب، د: مصطفى النحاس، ط١، ذات السلاسل للطباعة و النشر، الكويت، ٢٠٠١ م: ٦٤

[5] سورة التكوير: ١

[6] الكشَّاف ٤: ٦٠٤

[7] انظر: شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلى (ت ٦٦٩ هـ) تحقيق: صاحب أبو جناح، ط١، وزارة الأوقاف العراقية، ١٩٨٠م: ١: ٢٢٢

[8] سورة النساء: ١٧٦

بمضمر يفسره الظاهر، و محل (ليس له ولدٌ) الرفع على الصفة، لا النصب على الحال، أى: إن هلك امروٌ غيرُ ذى ولدٍ . ([1])

ويبدو - من حديثه - حرصُه على تفعيل القيم التركيبية، والوظائف التعبيرية لعناصر التركيب النحوي، التي تستثمر الشحنات الدلالية لها – بما يربط بينها من علاقات داخلية - فى تحقيق عملية التواصل و إنجاحها . وهو ما تُنادى به لسانيات النص الحديثة، التي تُراعى – فى وصفها وتحليلاتها – عناصر لم تُوضع فى الاعتبار من قبل، وتلجأ – فى تفسيرها – إلى قواعد تركيبية و قواعد دلالية و منطقية، فتنظر للتراكيب نظرة كلِّيَّة، و ترصد وسائل الترابط العميق بين الوحدات الجزئية، من دون فصل بين هذه الأجزاء . ([2]) فقد ذهب الزمخشري إلى أن الجملة الاسمية لابد أن يكون رابطُها الواو فقط، يقول: يقول: والجملة تقع حالًا، ولا تخلو من أن تكون اسمية أو فعلية، فإن كانت اسمية فالواو؛ إلَّا ما شذَّ من قولهم: كلمته فوه إلى فىَّ، و ما عسى أن يعسُر عليه فى الندرة . ([3])

(ب) - تراكيب نحوية خالف فيها جمهور النحاة:

هناك بعض التراكيب التي انفرد بها الزمخشري، خالف بها إجماع النحاة البصريين و الكوفيين، يسوق الباحث أمثلة تطبيقيَّة منها؛ للاستشهاد لا الحصر، وهى كما يلى:

- **ليس شرطًا أن يكون المفعول معه اسمًا صريحًا:** يحتاج الفعل – فى ترابطه مع المفعول معه – إلى أداة تقوم بذلك، وهذه الواو هى واو المصاحبة، التي تدل على التلازم بين الفعل و المفعول معه، ولم يستشهد النحاة على ورود المفعول معه فعلًا، إلَّا أن الزمخشري توسع فى ذلك، ليجعل المفعول به شاملًا للاسم و الفعل، طالما لم يوجد مانعٌ لغوى و لا دلالىٌّ من العطف . ([4]) ومن أمثلة أمثلة ذلك تعريفه للمفعول معه بأنه: المنصوب بعد الواو الكائنة بمعنى مع . ([5]) فمن الملاحظ على هذا التعريف أن المراد بقوله: المنصوب . لم يقصر الأمر على الاسم أو الفعل، علمًا بأن المفعول معه في اصطلاح النحاة اسم صريحٌ لا فعل . فسيتنكر تأويل النحاة لبعض التراكيب، وعنده أنه ينصب المفعول معه إذا تضمن الكلام فعلًا، كقولك: ما صنعت و أباك، و ما زلتُ أسير و النيل . جاء في المفصل: " وأما قولك: ما أنت وعبدُ الله . و كيف أنت و قصعةٌ من ثريد، فالرفع، فيذكر أن من العرب من ينصبه على تأويل: ما كنت أنت و عبد الله . و كيف تكون أنت و قصعةً من ثريد، ثم يُدلل على رأيه بقول الشاعر:

يا زبرقان أخا بنى خلفٌ ما أنت ويُبَ أخيك والفخرُ . ([6])

إلَّا عند ناس من العرب ينصبونه على تأويل: ما كنت أنت و عبدَ الله ؟ . و كيف تكون أنت و قصعةً من ثريد ؟ . ([7]) لذا جعل ابن هشام من شرط الاسم الذى يقع مفعولًا معه: أن يكون اسمًا صريحًا، و خرج – بذلك – شيئان، الأول: الاسم المؤول من أن المصدرية و الفعل المضارع، نحو: لا تأكل السمكَ و تشربَ اللبنَ، بنصب (تشربَ) بأن مضمرة بعد واو المعية، فلا يُسمى الاسم المؤول مفعولًا به عند

---

[1] الكشَّاف ١: ٥٣٠

[2] انظر: بلاغة الخطاب و علم النص، د: صلاح فضل، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٦م: ٣٢١ - ٣٢٢

[3] المفصل: ١٣، والنص منقول من المتن فى شرح المفصَّل، لابن يعيش، (د . ط)، عالم الكتب، بيروت، (د ز ت)، ٢: ٦٥

[4] انظر: بناء الجملة العربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د . ط)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣ م: ١٥٣ - ١٥٤

[5] المفصل: ١٦٣

[6] البيت من بحر الكامل، و هو للمخبل السعدي من بنى أنف الناقة، و هم المقصودون بقولهم: يا أخا العرب، يهجو فيه ابن عمه الأعلي الزبرقان بن بدر، و هو غير الزبرقان بن بدر الفزاري، و هو من شواهد الكتاب،(هذا باب معنى الواو فيه كمعناها فى الباب الأول) يُريد أنها بمعنى: مع . و رواية الكتاب: ويب أبيك . و المراد من قوله: ويب أبيك: تحقير له و تصغير، وويب كلمة مثل ويل، و يُروي: ويل أبيك .
والشاهد فى البيت: مجيء الواو بمعنى: مع، إلَّا أنها تعطف الاسم على ما لا يكون ما بعده إلَّا رفعًا على كل حال . انظر: شعر المُخبَّل السعدى، صنعة حاتم الضامن، (شعراء مقلون) ط١، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م: ٢٩٣، و انظر: الكتاب، ١: ٢٩٩

[7] المفصل: ١٦٩ - ١٧١

الجمهور، لذا ذكر ابن هشام أن الصدر الفاضل، و هو تلميذُ الزمخشري، يجعل الجملة التي تقع بعد الواو، فى قوله: جاء محمد و الشمسُ طالعة . مفعولًا معه، ثم يُعلق ابن هشام بقوله: وليس بشىء.([1])

كما يذكر الزمخشري أن الواو التي تُشير إلى المصاحبة قد تحمل معنى الإباحة و التخيير، كما فى قولهم: جالِسْ الحسنَ و ابن سيرين، أى: أحدهما، ألا ترى أنه لو جالسهما جميعًا أو واحدًا منهما كان ممتثلًا؛ فقُلِكت نفيًا لتوهم الإباحة . ([2]) و يردُّ ابن هشام كلام الزمخشري بأن فى كلامه خرقًا لإجماع النحاة، يقول: " و المعروف – من كلام النحاة – أنه لو قيل: جالس الحسن و ابن سيرين . كان أمرًا بمجالسة كلٍّ منهما، و جعلوا ذلك فرقًا بين العطف بالواو، و العطف بـ (أو) . ([3])

- <u>اختيار النصب فى المستثنى بـ: (ما عدا و ما خلا):</u>

ذكر الزمخشري أن المستثنى بعد ما عدا و ما خلا حكمه النصب ليس إلَّا، و أُجيز الجر بعد ما على جعل (ما) زائدة، و جعل (خلا و عدا) حرفي جرٍّ . ([4]) و يميل أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف – رحمه الله – إلى تأييد هذا الرأى، حين يذهب إلى أنه " لا يُعد الاسم مستثنى نحويًا إلَّا إذا كان منصوبًا، أو ما يجوز فيه وجه آخر، و لكنه منصوب .

وساق أمثلة لذلك، نحو:

- خرج القوم خلا محمد . (ومثل خلا عدا و حاشا) .
- خرج القوم خلا محمَّدًا .
- خرج القوم ما خلا محمدًا . ([5])

ويجعل ابن هشام نصب ما بعد (خلا) من طرائق الربط بين عناصر أسلوب الاستثناء فى التركيب النحوي لا اللغوى، و المفهوم من كلام ابن هشام أن موضعها نصبٌ عن تمام الكلام، لأنها تتعلق بما قبلها من فعل أو شبهه، و هى بمنزلة (إلَّا) . ([6])

<u>جواز وقوع المبتدأ والخبر معرفين بدون ضمير الفصل مع امتناع تقدم الخبر:</u>

ذكر الزمخشري أنه قد يقع المبتدأ و الخبر معرفتين معًا، كقولهم: زيدٌ المنطلقُ . ولا يجوز تقديم الخبر هنا، بل أيهما قدمت فهو المبتدأ . ([7]) وفى هذا السياق يقول أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف – رحمه الله: " هناك وسيلتان للربط بين المبتدأ و الخبر غير ما تقدَّم – إشارة إلى ربط المبتدأ بالخبر الجملة، و ربط المبتدأ بالخبر المقترن بالفاء – ولكنهما غير لازمتين، شريطة ألَّا يحدث لبسٌ، يؤدِّى إلى عدم وضوح عناصري الإسناد . ([8]) وجعل من ذلك: الوصف المعرف بـالألف و اللام، اللام، من دون الحاجة إلى ضمير الفصل، ثم ينقل كلام سيبويه، من أن صور المبتدأ و الخبر، و من دون رابط لم تثبت إلَّا فى أن يكون بين كلمتين الأولى معرفة و ثانيتها ذات اللام، أو بين معرفة و نكرة، هى أفعل التفضيل . ([9])وقد جاء على هذا البناء قوله – تعالي: " إن الذين يغُضُّون أصواتَهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرةٌ و أجرٌ عظيمٌ " . ([10]) فقد أشار نظم

---

[1] انظر: شرح شذور الذهب، لابن هشام الأنصارى، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، (د . ط)، دار الطلائع، القاهرة: ٢٠٠٤ م: ٢٦٢، و انظر: مغنى اللبيب عند كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تدقيق: د . صالح عبد العظيم الشاعر، ط١، مكتبة الآداب، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م: ٢٩٠

[2] انظر: الكشاف ١: ٢٣٤

[3] مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب: ٢٩٠ - ٢٩١

[4] المفصل: ١٩٣

[5] انظر: بناء الجملة العربية: ١٦٩ - ١٧٢

[6] مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب: ١١٣ - ١١٤

[7] المفصل: ٧٨

[8] انظر: بناء الجملة العربية: ١١٤

[9] انظر: الكتاب ١: ٣٩٢، و بناء الجملة العربية: ١٢٢

[10] سورة الحجرات: ٣

الآية إلى وقوع الغاضين أصواتَهم اسمًا لإنَّ المؤكدة، و تصيير خبرها جملة من مبتدإٍ و خبر معرفتين معًا، فالمبتدأ اسم إشارة، و هو (أولئك) و الخبر اسمٌ موصولٌ . ([1])

- **اسم التفضيل المقيس يعمل عمل فعله:**

ذكر الزمخشري أن اسم التفضيل لا يعمل عمل فعله، لذا لم يُجِزْ: مررت برجل أفضل منه أبوه ولا خيرٌ منه أبوه .([2]) ومعلوم أنه يصح أن يَرفع اسمًا ظاهرًا قياسًا مطردًا في كل موضع يقع فيه، بعد نفي أو شبهه، وكان مرفوعًا مفضلًا على نفسه باعتبارين، نحو: ما رأيت رجلًا أحسن في عينه الكحلُ منه في عين زيدٍ . ([3])

- **تقارض الأدوات في العمل للمشابهة:**

يقبل الزمخشري تلك التراكيب النحوية التي تقوم على التقارض اللغوي، أو ما يُمكن أن نُسميه: تقارض العوامل الحرفية، لعلة الحمل و المشابهة؛ فإن السيء يأخذ حكم السيء في العمل لعلة المشابهة، فإذا زالت المشابهة زال عنه العمل، كما في إعمال (ما) الحجازية، قال الزمخشري: إن الأصل في (ما) ألّا تعمل، وإنما عملت – عند من أعملها – للشبه – يريد الشبه بليس – فإذا زال المقتضى للعمل، زال العمل " . ([4])

- **الأصل في الفاعل أن يتقدَّم على فعله:**

أدرك الزمخشري معيارًا تركيبيًا مهمًا، وهو أسبقية الوجود، وأن حقَّ الفاعل أن يتقدم على فعله؛ حيث إنه هو الذى يقع عليه الحدث، وهو المشكِّل له، ولولاه ما تم الحدث، ولا وُجد، ولعل هذا ما تنادى به اللسانيات الحديثة من أن الدلالة العميقة لا تقوم على الشكل، ولا على هيئة العناصر اللغوية المشكلة للتركيب النحوي، إنما مدار الأمر على سلامة الدلالة وفقًا للعلاقات الدلالية بين القوالب اللغوية. وهو– بذلك– ينتصر لرأى الكوفيين،الذين ذهبوا إلى ذلك محققين واقعية اللغة، التي ربطت بين المعنى، والعلاقات التوزيعية بين عناصر التركيب .

وليس من غضاضة فى القول بسبق الزمخشري فى هذا، فنراه يقول: " اعلم أن القياس فى الفعل – من حيث هو حركة الفاعل فى الأصل – أن يكون بعد الفاعل؛ لأن وجوده قبل وجود فعله . ([5]) فيخالف فيخالف القول بأن تقدُّم الفاعل على فعله غيرَ جائز، إذ به تخرج الجملة من الفعلية إلى الاسمية، وما فعله الزمخشري فيه ضياع لقرينة الرتبة، وفى النَّظرية البصرية، التي تقوم على الأكثر حفاظ على قرينة الرتبة، إذ لا يُمكن أن نتحدث إلّا عن ترتيب واحد، وهو: فعل + فاعل، بتأخير الفاعل عن فعله.([6])

وفي صنيع الزمخشري عدم اعتداد بقرينة الرتبة، لأن مدار الأمر عنده على ترتيب الدلالة، فلولا ذلك القائم بالحدث لم يكن هناك حدثٌ، فالفاعل – فى الأهمية و الدور الدلالي – أقوي من الفعل، وكلام الزمخشري تأكيدٌ لذلك، حيث يعتدُّ بالبنية العميقة، التي تُعينُ على فهم القصدية من التركيب النحوي، من دون حصر الأمر فى رتبة أو علامة، حتى لو اختلفت الرتبة، وهو – ذاته – ما تُنادى به التوليدية التحويلية .

- **التركيب الشاذ في جملة الحال:**

ذكر الزمخشري أن جملة الحال – إذا وقعت اسمية – لزمت الواو؛ إلَّا ما شذَّ من قولهم: كلمته فوه إلى فيَّ . وذكر أن جملة الحال – إذا كانت فعلية فعلها مضارع مثبت – فهي بغير واو وكذلك الماضى .([7])

---

[1] انظر: الكشاف ٤: ٣٠٨

[2] المفصل: ١٣٠

[3] المفصل: ١٣٧

[4] اعجب العجب في شرح لامية العرب، لفخر خوارزم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة لسان العرب، ط٢،على نفقة: محمود أحمد، بنظارة الأشغال، بمصر، ١٣٢٤هـ: ١٥

[5] انظر: المفصَّل: ٧٥

[6] انظر: شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهرى، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ١: ٣٩٧

.([1]) وليس الأمر كذلك: فقد وردت في القرآن – في مواضع عدة – جملة الحال اسمية بغير واو، نحو قوله – تعالي: " اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ " .([2]) ونحو قوله – تعالي: " و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودةٌ " . ([3]) أما المضارع المثبت – إذا اقترن بقد – فهو يلزم اقترانه بالواو، نحو قوله – تعالي: " و قد تعلمون أني رسول الله إليكم " . ([4]) أما الماضى فهو - غالبًا – مقترن بقد؛ و يجوز فيه الأمران، تقول: جاء زيدٌ و قد قام عمرو. و جاء زيدٌ قد قام أبوه .

المحور الثاني: مستويات القبول فى التركيب النحوي، وفيه:

- **الأبعاد النحوية للقبول فى التركيب النحوي:**

تجلَّت بعض عناصر الإعجاز فى تناول الزمخشري للتراكيب النحوية، التي يتعرض لها فى تفسيره، نذكرُ بعضًا منها فيما يلى:

- سلامة التركيب النحوي و التصاعد الدلالي:

يمكن التأكيد على أن أبعاد الدرس البلاغي لم تنحصر– عند الزمخشري – عند حدِّ الجملة، ولا على البلاغة اللفظية، من دون العناية بالمعاني؛ فقد طوَّر نظريته، ليُجاوز بها حدود الجملة، و يستكشف أبوابًا أخري غير الوصل والفصل، في دراسة المعاني وبيان تماسكها؛ فقد أدرك الزمخشري ما يسميه المحدثون: عتبات النص، كما أدرك أن النص البلاغي أو الخبر إنما يتحقق في تسلسل من المتواليات اللفظية والدلالية، تكفل تطوره على مستوى الألفاظ، ونموه على مستوى المعاني؛ مما يُجسد بُعدًا مهمًّا من الأبعاد التي يُعرف على أساسها النص الكلي أو البنية الكلية للنص في درسنا اللغوي الحديث والمعاصر.

كما يحرص على أن تكون هذه المتواليات الجُمَلِيَّة الدلالية معبرةً عن مشاعر مؤلفها، و قادرة على تصوير ما يعتريه بأشمل صورة و أتمها . و تقوم نظريته فى تصاعد الدلالة من خلال تكثيف العناصر اللغوية المعبرة، أو ما يمكن تسميته: الإسناد المعنوي، القائم على التزام أوجه الإعراب المتاحة، فهو عندما يحكم بوجود ارتباط و تعالق بين قوله – تعالي: " الذين يؤمنون بالغيب ". مبتدأ؛ و قوله – تعالي: " أولئك على هدى من ربهم ". خبرٌ لهذا المبتدأ؛ فقد استند إلى الإعراب في إحداث الترابط بين هاتين الجملتين؛ من خلال ما بينهما من ضمائر، وإحالات، وعلاقات إشارية، وأخري داخلية .

ثمة – إذن – حديث عن حدود التركيب، و عن ضوابط الدلالة و تركيزها، و لاسيما ما يتعلق بأمن اللبس والإفادة، حيث يتوقف عليهما قبول التركيب أو عدمه،، و قد عوَّل عليهما الزمخشري كثيرًا، حين جعل من حق المؤلف أن يُغاير في الهيكل الفنولوجى و المورفولوجى للعناصر اللغوية المشكلة للتركيب، طالما تحقق الضابطان السابقان، أعنى: أمن اللبس و الإفادة .

و جعل من ذلك الحمل على المعني، أو على اللفظ، أو تأنيث المذكر أو تذكير المؤنث، ووجود تعالق بين الجمل، كعلاقة السببية و المسبَّبيَّة، أو علاقة التشارك بين المعطوف و المعطوف عليه، أو علاقة المقسم به و المقسم عليه، فجاوز الزمخشري – بذلك – مستوى الصحة إلى مستوى الوضوح .

فلا يقول بتمام الدلالة اكتفاءً بحد الشكل، إنما يتوصل إليها من خلال بعض الأبعاد الدلالية، والتركيز على المضمون، و تفهم الأسرار الدقيقة بين التراكيب، أنسًا بالمتجاورات الشكلية التي تقرِّب الدلالة النصية، أو ما يسميه المحدثون: البنية العميقة للنص . يقول الزمخشري – معلقًا على قوله – تعالي: " فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا . ثم إذا خوَّلناه نعمةً منَّا قال إنَّما أوتيتُهُ على علم . بل هي فتنةٌ و لكن أكثرهم لا يعلمون . ([5]): (بل هي فتنة) إنكارٌ لقوله، كأنه قال: ما خوَّلناك ما خَوَّلناك من النعمة لما تقول، بل هي فتنة . أي: ابتلاء و امتحان لك أتشكر أم تكفر ؟ . فإن قلت: كيف ذكَّر الضمير ثم أنَّثه ؟ . قلتُ: حملًا على المعني أوَّلًا وعلى اللفظ آخرًا؛ ولأن الخبر – لما كان مؤنَّثًا، أعنى: فتنة – ساغ تأنيث

[1] المفصل: ١٧٣ - ١٨٨
[2] سورة البقرة: ٣٦
[3] سورة الزمر: ٦٠
[4] سورة الصف: ٥
[5] سورة الزمر: ٤٩

المبتدأ لأجله، لأنه في معناه، كقولهم: ما جاءت حاجتك؛ و لعل ذلك من الإبداع الدلالي في التراكيب عند الزمخشري، مما يؤكد أن ثمة نظرية محددة قرَّت في وعيه، إذ لا يقوم التركيب عنده إلَّا على الأبعاد الدلالية السليمة، احتفاء بقرينة علم المخاطب، و بما شاع استعماله من سلامة الدلالة .

فيمنح المؤلِّف سبيلًا للتعبير أوسع، و لا يقيِّده بنمط التلقِّي، و لا بضرورة أن تخضع عناصره له، فيُسلب المؤلف طلاقة خاصة في تعبيراته، و تحديدًا أخص لقصده، و جمالًا و تحسينًا في عناصره الجملية، لذا نراه يدقق في القدرة الوظيفية التي يؤديها كل حرف من الجملة في التعبير عن معنى خاص، يقول: " فإن قلت: ما السببُ في عطف هذه الآية بالفاء و عطف مثلها في أول السورة بالواو - إشارة إلى قوله – تعالي: " و إذا مسَّ الإنسان ضرٌّ " . ؟ . قلتُ: السبب في ذلك: أن هذه وقعت مسبَّبة عن قوله: " و إذا ذُكر الله وحده اشمأزَّت " . على معنى: أنهم يشمئزُّون عن ذكر الله، و يستبشرون بذكر الآلهة؛ فإذا مس أحدهم ضرٌّ دعا من اشمأزَّ من ذكره دون من استبشر بذكره . ([1]) و هو – هنا – لا ينظر إلى الأصول النحوية؛ بوصفها سفيرًا للمعيارية اللغوية، إنما ينظر إليها بوصفها روابط تؤلِّف بين الأنماط اللفظية و الدلالية، و بين تفسيراتها المحتملة و المقبولة لدى جماعتها اللغوية، و على سبيل الاتساع .

كما يكشف – لنا – الزمخشري ألوانًا من المعاني وراء تلك الأشكال و التراكيب، و كأن النحو هو أساس التراكيب لا الألفاظ، إلَّا فيما له نكتة دلالية أو بلاغية، فتتضاءل قوة النحو أمام قوة البلاغة و سمو المعنى المقصود، انظر إليه يقول: " فإذا ارتفع الموصول الثاني على الابتداء، يُعطى التركيب معني جديدًا، يُفهم من عرضه، و يكون فيه غمزٌ لأهل الكتاب ".([2])

والتركيب – عند الزمخشري – هو الذى يحمل المعاني والقصود، ويبين أسرارها، ونستجلى - من خلاله - العلاقات والروابط بين أنساقه الجزئية المكونة له، والتعالق بين جملة وأختها، فتضفُر الجمل في نسيج شكلي دلاليّ واحد، وفي تعبيرها عن معانيها، و اتصالها بعضها ببعض .

كما يستبين من خلال عناصر التراكيب الاعتراض الجُملى، وأثره في تغيُّر الدلالة، أو تفسيرها على ضوء من إطلاق الحكم أو تقييده، أو توسيعه؛ أو تعميم الخاص، أو تخصيص العام، أو بيان التطور الدلالي الذى لحق الدوال في سياقاتها، أو التغير الدلالي البعيد عن اللغة العُرفية، أو غير ذلك من المستويات الدلالية، التي لا يكشفها إلَّا التركيب في سياق محدد، وهو ما يُسمى: الدلالة السياقية .

فيقوم التركيب على حُسن تناسق الأصوات في الكلمة الواحدة؛ وعلى بعدها عن التنافر و التعقيد و الابتذال و الحوشية؛ ثم على استقامة المعني، و ينسحب هذا الأمر على العبارة، فالجملة، فالفقرة، فما وراء الجمل و الفقرات، فالنص بتمامه؛ و هذا التناسق و التعالق؛ هو ما يُعين على توضيح القصد من نص الكلام برمته؛ حيث تترابط الجمل بطريقة تتعالق فيها الدلالات، و هي نمط ارتباط بين العناصر اللغوية بالغ الدقة .

وقد جعل الزمخشري الاعتراض ضربًا – بصوره المتعددة- من ضروب الترابط بين جملة و جملة، فيعلق على الترابط بين الجمل فى الآيات السابقة، بقوله: " وما بينهما من الآى اعتراضٌ، فإن قلتَ: حقُّ الاعتراض أن يؤكِّد المعترض بينه و بينه ؟ . قلتُ: ما فى الاعتراض من رسول الله – صلى الله عليه و سلم – ربَّه بأمرٍ منه، قوله: (لأنت تحكم بينهم) ثم ما عقَّبه من الوعيد العظيم تأكيدٌ لإنكار اشمئزازهم . ([3])

وتُكشف تلك العلاقات بالتحليل الدقيق لمستويات النص، و الكشف عن أدواته و روابطه، و ليست الوسيلة – هنا – هي العلامة الإعرابية فحسب؛ بل في بيان موقع الجمل بعضها من بعض، من حيث التسبب و الاستئناف و الاعتراض .([4]) و يعبِّر الزمخشري عن هذا المعني، في حديثه عن التفصيل،

---

[1] انظر: الكشَّاف ٤: ١٢٣

[2] الكشَّاف ٣: ٥٥ ـ ٥٨

[3] الكشاف ٤: ١٢٣

[4] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ١٩٨

بقوله: إن التفصيل سببٌ لتلاحق الأشكال و النظائر، و ملاءمة بعضها البعض، و بذلك تتلاحق المعاني، و يتجاوب النظم / التركيب .([1])

لقد كانت فكرة الانسجام النصِّى واضحة في ذهن عبد القاهر الجرجانى وضوحًا متميزًا؛ حتى إننا نجده يعبر عنها بقوله: " اعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعًا من الذهب أو الفضة؛ فيذيب بعضها في بعض؛ حتى تصير قطعة واحدة " . ([2])، و هذا يدل على أن بنية النص، في تصوره، تصل إلى مرتبة الصهر الذى هو أعلى درجات التشكيل ". ([3]) وقد جاءت صيغة المضارع في نص في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى؛ لتدل على استقصاء الشيء و استظهاره؛ إذ يقول: " كما ينص الشيء و يعين و يكشف عن وجهه و يبين ".([4])

فقد تابع الزمخشري الفكرة ذاتها، بل إنه يُضفي على هذا النمط العالي من الكلام أثرًا جماليًّا، يعتمد على الذوق الصادق، و الحس المرهف في القراءة؛ أو الإنتاج، أو التخييل، يقول في قوله – تعالي: " و ترى الجبال تحسبها جامدة و هي مرَّ السحاب . صنع الله الذى أتقن كلَّ شىء ".([5]) إذ يُشير إلى تحقق التماسك النصى في هذا النص، و هو تماسك قائم على حُسن التأليف، و منطقية الترتيب، كأنه أُفرغ في قالب واحد، و يُدلل على ذلك ببلاغة الخطاب القرآني في استخدام المصادر، كقوله – تعالي: " مرَّ". أو " صُنع ".، فيقول: و نحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام؛ جاء كالشاهد بصحته، و المنادى على سداده، و أنه ما ينبغي أن يكون إلَّا كما قد كان، ألا ترى إلى قوله: " صُنع الله ". بعدما وسمه بإضافته إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: " الذى أتقن كلَّ شىء " . ([6])

و قد جعله السيوطى (ت٩١١هـ) سببًا صريحًا في إتمام الإفادة للمعنى؛ بقرائنه اللفظية و المعنوية، حيث قال:" لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على قَطع؛ مع انحسام جهات التأويل و الاحتمال، مع القرائن الحالية و المقالية ".([7])

تلك الفكرة سبق إليها الزمخشري)(ت ٥٣٨ هـ)؛ حين نظر إلى النص نظرة شاملة، تستهدف الخروج من دائرة الجملة الضيقة؛ إلى رحاب الفيوضات الدلالية و الاتساع؛ فقد كان – بعد الدراسة التحليلية للجمل، و بعد بيان ترتيب معانيها و تناسقها – ينظر إلى الدلالات نظرة أوسع، يصف النص، أو يشير إلى بعض الظواهر الفنية في الأسلوب؛ ويراها في مكامن القوة و التأثير .([8])

من ذلك قوله – معلقًا على قوله – تعالي: " يوم يُنفخ في الصور ففزع من في السماوات و من في الأرض إلَّا ما شاء الله و كلٌ أتّوْه داخرين . و ترى الجبال تحسبها جامدة و هي تمرُّ مرَّ السحاب صنع الله الذى أتقن كلَّ شىءٍ إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها . و هم من فزع يومئذٍ آمنون . و من جاء بالسيئة فكُبَّت وجوههم إلى النار .([9]) يقول الزمخشري: " انظر إلى بلاغة هذا

---

[1] انظر: الكشَّاف ١: ٧٤

([2]) دلائل الإعجاز: ٩٧

([3]) انظر: مقدمة في تعريف اللسانيات (بحث على شبكة المعلومات الدولية) نسخةpdf :

Lissaniat.net / view p = 324

([4]) دلائل الإعجاز: ٣٦

[5] سورة النمل: ٨٨

[6] الكشَّاف ٣: ٣٤٠ و ما بعدها

([7]) الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطي، و بالهامش: إعجاز القرآن، للقاضى أبى بكر الباقلاني، (د . ط)، دار نهر النيل، النيل، (د . ت) . ٢: ٣١

[8] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ١٣

[9] سورة النمل: ٨٧ - ٩٠

الكلام، و حُسن نظمه و ترتيبه، و مكانة إضماده، و رصانة تفسيره، و أخذ بعضه بحُجزة بعض، كأنما أُفرغ إفراغًا واحدًا ".([1])

وقد جاوز الزمخشري دلالة الألفاظ المفردة إلى الحديث عن الجمل و عناصرها؛ معتمدًا في ذلك على أن علاقة الإسناد هي الأصل في إقامة التركيب، مشيرًا إلى أن في الجملة أمورًا ثلاثة؛ هي: الإفادة و الاستقلال و كفايتها للمتلقي . يقول الزمخشري في هذا السياق: " و الجملة سواء كانت اسمية أو فعلية قضية إسنادية؛ لكونها تركيبًا من كلمتين، أُسندت إحداهما إلى الأخرى، و الشرط فيها أن تكون تركيبًا له معني مستقل مفيد فائدة يكتفي بها المتكلم أو السامع ".([2])

و يتابع الزمخشري تقسيم أبى على الفارسي للجملة / للتركيب، حين يتحدث عن أنواع الخبر الجملة؛ فيقول: و الجملة على أربعة أضرب: فعلية و اسمية و شرطية و ظرفية، و ذلك نحو: زيدٌ ذهب أبوه، و عمرو منطلقٌ، و بكر إن تُعطه يشكرْك، و خالدٌ في الدار ".([3])

يُعد الزمخشري أول من أشار إلى التقسيم الرباعي للجملة ([4])، حين جعلها (اسمية و فعلية و ظرفية و شرطية) فقد أضاف الزمخشري الجملة الظرفية إلى ما اُشتُهر عند سابقيه، و قد مثَّل لها بقولهم: خالد في الدار، فيجعلها متكونة من مبتدإ و خبر، وقع عنده ظرفًا، أو جارًّا و مجرورًا . ([5])

و هذا التصنيف فيه دليلٌ على إدراك الزمخشري لأبعاد العلاقة بين البنيتين السطحية و العميقة، التي تُنادى بها اللسانيات الحديثة، و هو - عند تشومسكى – تصنيف دلاليّ وظيفي، و ليس شكليًّا فقط، إذ يُركِّز على الوظيفة النحوية التعبيرية للكلمة داخل التركيب، مثل الفاعلية، و المفعولية، و الحالية، و الظرفية؛ لأن كلامه يتصل بمدى تأثر الكلمة و تأثيرها، فيتحدد نوعها ووظيفتها .

ونري الزمخشري يدقِّق في الدلالات التركيبية من خلال العلائق التي تحققها الأدوات المستخدمة، إذ يقرر أن هناك فارقًا دلاليًّا بين أداة و أخري، فهو يجوِّز أن تقوم (أو) مقام (أم) المعادلة؛ ثم يذكر أن بين الحرفين فرقًا في الاستعمال، يقول: " و الفصل بين (أو) و (أم) في قولك: أزيدٌ عندك أو عمرو ؟ . و أزيد عندك أم عمرو ؟ . أنك في الأول لا تعلم كون أحدهما عنده، فأنت تسأل عنه، و في الثاني: تعلم أن أحدهما عنده؛ إلا أنك لا تعلمه بعينه، فأنت تطالبه بالتعيين، و جواب (أم) يكون بالتعيين: (زيد) أو (عمرو) لأنك مدعٍ إن أحدهما عنده ".([6])

- <u>التركيب النحوي و الإفادة:</u>

يجعل الزمخشري الإفادة شرطًا لصحة التأويل في التراكيب، فقد يضمر أحد عناصره، و يظل التركيب دالًا على معناه، و هذا ما دفع الزمخشري إلى تجويز إضمار أن، و إنزال الفعل منزلة المصدر، في المثل المشهور: تسمعَ بالمعيدى خيرٌ من أن تراه ". فأن – هنا – مضمرة، و التقدير: أن تسمعَ، على سمت كلام العرب: مُرْه يحفرَها بفتح الراء، و قولهم: خذ اللص قبل يأخذَك . كما أن الفعل مع أن المضمرة قد حلَّ محل المصدر، المرفوع على الابتداء، و التقدير: سماعُك .([7])

فلا يصح قصر الإفادة فى عنصر لغوي وحيد، و هو المبتدأ مثلًا؛ فهو وظيفة إفرادية، لأنه مسند إليه، و هو محدَّثٌ عنه، و لابد أن يكون اسمًا، و لا يُمكن أن يكونِ جملة، لذلك فقد لجأ النحاة إلى التأويل فى المثال السابق، والمعنى: أن تسمعَ، لأن الإخبار لا يجوز إلَّا عن اسم . ([8]) لكن هناك آية بدا

---

[1] الكشَّاف ٣: ٣٤٤

[2] انظر: المفصل: ٦٠

[3] المفصل: ٢٤

[4] انظر: مفهوم التبليغ و بعض تجلياته التربوية في التراث اللساني، د: بشير إبرير، مجلة التراث العربي، مجلة شهرية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٩٩/ ١٠٠ – السنة الخامسة و العشرون – تشرين الأول ٢٠٠٥م / رمضان ١٤٢٦هـ: ٥٦ و ما بعدها

[5] المفصل: ٧٦

[6] المفصل: ٣٠٥

[7] الكشَّاف ٣: ٢٠١

[8] انظر: بناء الجملة العربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د . ط) دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٤٩

بدا فيها أن المبتدأ جملة فعلية، وهى قوله – تعالي: " و من آياته يُريكم البرق خوفًا و طمعًا " . ([1]) لأنها جاءت ضمن سياق عدد من الآيات قبلها و بعدها، كلٌّ منها تبدأ بجملة اسمية، حيث يقول – تعالي: " و من آياته أن خلقكم من تُراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون . و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودَّةً و رحمة إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون . و من آياته خلقُ السماوات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنَّ فى ذلك لآياتٍ للعالمين . و من آياته منامكم بالليل و النهار و ابتغاؤكم من فضله إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون . و من آياته يُريكم البرق خوفًا و طمعًا و يُنزِّلُ من السماء ماءً فيحيىَ به الأرض بعد موتها إنَّ فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . و من آياته أن تقومَ السماء و الأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجونَ " . ([2])

وسياق الآية يتوافق مع أخواتها اللائى جِئْن فى صورة شكلية لم تفارقها الآية محل الاستشهاد؛ من البدء بالجار و المجرور، (و من آياته)، لكنها ثنَّت بما لم تُثنِّ به السابقات، من المصدر المؤول أو المصدر الصريح، فقد تلا الجار و المجرور جملة فعلية، فعلها مضارع، و هو قوله:" يُريكم البرقَ ". ولقد انفرد الزمخشري بأن جعل المبتدأ جملة، و بأن الفعل يُمكن أن ينزل منزلة المصدر، و التقدير: و من آياته إراءُتكم . و جعل فى الآية وجهين: إضمار أن . وإنزال الفعل منزلة المصدر، و بهم فُسِّر المثل: (تسمعُ بالمُعَيْدِىَّ خيرٌ من أن تراه) . و قول القائل:

وقالوا: ما تشاءُ ؟ فقلتُ: ألْهوَ إلى الإصباح آثِرَ ذى أثير . ([3])

و يفسِّر أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف – رحمه الله – كلام الزمخشري أن التركيب القرآني: (و من آياته يُريكم البرق) . قد آثر الصيغة الفعلية فى موضع المسند إليه؛ لينقل المخاطبين إلى جو الحركة الماثلة المتجددة، و لعل الزمخشري الذى يرى أن الفعل ينزل منزلة المصدر يُوحي بشيءٍ من ذلك .([4])

ويعتمد الزمخشري فى تأويله - هذا - على المعنى، وعلى أن الجملة الفعلية المكونة من الفعل المضارع ومتمماتها قد وقعت موقع المفرد باعتبار المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيامُ السماوات والأرض، وما قبلها وبعدها من الإخبار على تقدير إيقاع الجملة موقع المفرد على المعني . ([5])

و تقوم دراسة الزمخشري لأبعاد التركيب على تغليب الوضوح، و تجنب الاحتمالات الدلالية المتباينة أو المتداخلة أو المتعارضة؛ قدر الإمكان؛ فيغلب ألَّا تكون للكلمة وظيفيتان، أو تؤدى معنيين؛ و هذا الأمر ليس على إطلاقه؛ إنما يسمح بتعدد الأوجه الإعرابية، طالما أن لكل وجه نحوي ما يسانده؛ و يرى أن هذا الأمر ليس غموضًا و لا قصورًا في التفسير النحوي؛ بل هو دليل ثراء في البناء اللغوي، و ضربٌ من ضروب الاتساع في اللغات الحيوية؛ من تغليبٍ لعامل السياق في تحديد الاحتمالات الدلالية .

ومعني ذلك أن الزمخشري يتجاوز مستوى الصحة النحوية إلى الصحة الدلالية مع وضوحها، و يعتمد - في دراسته للتركيب - على البعد عن الإلباسٍ و الغموض، و الحرص من قِبل المؤلف على تحقيق الفائدة، و تضييق الاحتمالات الدلالية لدى متلقٍ، و في هذا الحال يكون الحكم على النص / القصد / بالقبول من عدمه؛ ذلك القبول القائم على مراعاة حال المخاطب، و أفق تلقيه، ومدى تحقق الفائدة، التي يحملها ذلك التركيب .

---

[1] سورة الروم: ٢٤

[2] سورة الروم: ٢٠ - ٢٥

[3] البيت من بحر الوافر، وهو لعروة بن الورد العبسي، والأثير: المُفَضَّل، يقول الشاعر: سألونى: أى شيءٍ تشاءُ ؟ . فأحبت أن ألهوَ طول الليل، و حتى الصباح، موثرًا كلَّ شيءٍ ممتعٍ يصح أن أوثره . والشاهد فيه: فقلتُ ألهوَ . بإضمار أن، أو بتقدير مصدر، أى قلتُ: اللهو إلى الصباح .

الشاهد: (ألهوَ) بنصب الواو من ألهو، أراد: أن ألهوَ، بإضمار (أن) الناصبة .انظر: الكشاف ٣: ٤٢١،و انظر: شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق: محمد عبد القاهر عطا وطارق فتحي السيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ١: ٢٢٩

[4] بناء الجملة العربية: ٥٣

[5] انظر: الكشاف ٣: ٤٢١

مثل ذلك تغليبه أن تكون كلمة: (الراسخون) معطوفة على التشريك على لفظ الجلالة – سبحانه و تعالي – لأن النظام اللغوي يجعل من الواو حرف عطف؛ لعطف المفردات و الجمل، و قد اختار النحاة أن تكون الواو من باب عطف الجمل، و تكون كلمة (الراسخون) مبتدأ، و جملة: (يقولون آمنا به) تكون هي الخبر، و يكون المعني: إن الله – تعالي – هو وحده من يعلم تأويله، و الراسخون في العلم هم الذين يؤمنون به .

أما الزمخشري فيختار أن تكون الواو من باب عطف المفردات، و تكون كلمة (الراسخون) معطوفة على لفظ الجلالة – سبحانه و تعالي – و يكون المعني: إنه لا يهتدى إلى تأويله إلا الله، و عباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه، و تمكنوا، و عضوا فيه بضرس قاطع .

و نراه – لذلك – يهمل قراءة من يقف على قوله: (إلَّا الله)، بقوله: و منهم . و يبتدئ: (و الراسخون في العلم يقولون) . ثم نجده ينتصر للرأي الأول بقوله: و الأول هو الوجه، و يقولون كلامٌ مستأنف موضِّحٌ لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل، و يجوز أن يكون (يقولون) حالًا من الراسخين "..([1])

ويشير الزمخشري إلى أن من ضوابط التركيب الجنوح إلى الخفة، و تجنب الثقل في عناصره المكونة له؛ إذ أجاز حمل الاسم الثاني على الأول، و اختار علامته الإعرابية، لأجل المشاكلة اللفظية في التركيب، و حملًا على المجانسة في العامل النحوي .

يقول سيبويه: " هذا باب ما يُختار فبه إعمال الفعل؛ مما يكون في المبتدأ مبنيًّا عليه الفعل، و ذلك قولك: رأيتُ زيدًا و عمرًا كلمته . و رأيت عبدَ الله و زيدًا مررتُ به .. و إنما أُختير النصب – ههنا – لأن الاسم الأول مبنى على الفعل، فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم؛ إذا كان يُبنى على الفعل، و ليس قبله اسم نبنى على الفعل، ليجريَ الآخر على ما جري عليه الذى يليه قبله .

إذ لا يُنقض المعني لو بنيته على الفعل، و هذا أولى أن يُحمل عليه ما قرب جواره منه، إذ كانوا يقولون: ضربوني و ضربتُ قومك . لأنه يليه، فكان أن يكون الكلام على وجه واحد – إذا كان لا يمتنع الآخر من أن يكون مبنيًّا على ما بُنى عليه الأول – أقرب في المأخذ ".([2])

ويقول السيرافي: اعلم أن العرب إذا ذكرت جملة كلام، اختارت مطابقة الألفاظ؛ ما لم تفسد عليها المعاني؛ فإن جئتَ بجملة صدرتها بفعل، ثم جئت بجملة أخرى، عطفتها على الجملة الأولي، و فيها فعل؛ كان الاختيار أن تُصدر الفعل في الجملة الثانية؛ لتكون مطابقة للجملة الأولى في اللفظ و تصدير الفعل ".([3])

وقد تابع الزمخشري ذلك الأصل النحوي حين جوَّز إضمار الفعل، و جعل تقديره أولي في قوله – تعالي: " يُدخل من يشاء في رحمته و الظالمين أعدَّ لهم عذابًا أليمًا ". ([4]) يقول الزمخشري: " و نصب (الظالمين) بفعل يفسره (أعدَّ لهم) نحو: أوعدَ و كافأ، و ما أشبه ذلك ".([5]) لأن الجملة قبلها مصدرةٌ بفعل، و هو: (يُدخل) . و كذلك قوله – تعالي: " فريقًا هدى و فريقًا حقَّ عليهم الضلالة ".([6]) ".([6]) فيذهب الزمخشري إلى إضمار فعل، يفسره الفعل المذكور بعده؛ من باب الحمل على المشاكلة النحوية بين الجملتين، يقول الزمخشري: " و انتصاب قوله: (فريقًا) بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: و خذل فريقًا حقَّ عليهم الضلالة ".([7])

---

[1] الكشَّاف ١:٣١٢

[2] الكتاب ١: ٨٨- ٨٩

[3] شرح الكتاب للسيرافي: ٣: ١١٩

[4] الإنسان: ٣١

[5] الكشَّاف ٤: ٥٧٧

[6] سورة الأعراف: ٣٠

[7] الكشَّاف ٢: ١٦

- **التركيب المردود:**

وهو عند الزمخشري ذلك التركيب، الذى يخرق الدلالة، أو يُسهم في تغيير المعنى المقصود، إذ يحافظ الزمخشري على الترتيب الوجودى للعناصر اللغوية؛ إذ على ذلك تقوم الدلالة، و في ذلك تعظيم لتعالق النحو والدلالة، فقد جاء في المفصل أن الفاعل: هو ما كان المسند إليه من فعل أو شبهه مقدمًا عليه أبدًا؛ كقولك " ضرب زيدٌ، و زيدٌ ضاربٌ غلامه ([1])، و هذا الحد ينطبق على نائب الفاعل - أيضًا . و لا وجود – عند الزمخشري – لما يسميه النحاة نائب فاعلٍ، إذا هو فاعل، سواء كان اسمًا صريحًا أو مصدرًا منسبكًا، من أن و المضارع، أو أنَّ و ما يليها، فقد جاء في قوله – تعالي: " قل أُوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن .. " . ([2]): (قل أُوحى إلىَّ أنه استمع) (أنه استمع) بالفتح، لأنه فاعل (أُوحى).([3]) (أُوحِي).([3])

و يردُّ الزمخشري ذلك التركيب الذى يتم فيه الفصل بين المتلازمين (المضاف و المضاف إليه)، لما يترتب على ذلك من اختلال للدلالة، و تفويت القصد، و إضعاف الترابط بين عناصر التركيب النحوي، كما في قوله – تعالي: " و لا تحسبنَّ اللهَ مخلفَ وعدِه رسلَه " . ([4]) يقول الزمخشري: " و قرئ: مخلفَ وعدَه رسلِه، بجر الرسل و نصب الوعد، حيث فصل بين المضاف (مخلف)، و هو اسم فاعل، و المضاف إليه (رسله) بمفعول المضاف (وعده)، و هذا في الضعف، كمن قرأ: " قتلُ أولادَهم شركائِهم" . ([5])

و يعظِّم الزمخشري من عدم تخطئة المادة اللغوية التي ثبتت عن اللسان العربي الموصوف بالسلامة و الصحة و الفصاحة و الشيوع، لذا يُفهم من كلامه أنه يُقبح الفصل بين المتلازمين (المضاف و المضاف إليه) إلَّا فيما ورد و ثبت عن اللسان العربي الفصيح، بعيدًا عن الشيوع، و حفاظًا على قرينة التلازم .

كما يردُّ الزمخشري تركيب التعجب؛ إذا تم التصرف في عناصره بالتقديم أو بالتأخير، فيقول عن تركيب التعجب: " لا يُتصرف فيه بتقديم و لا بتأخير، و لا فصل؛ إلَّا بأشياء محدودة، مما يؤكِّد أنه تركيب مسكوك، كالأمثال . ([6])

ويَرُدُّ الزمخشري تأول التراكيب بغير ما تحتمل، تجنبًا لتناقض الدلالة، و ضياع القصد؛ حيث يجب أن يكون التركيب متوافقًا مع الدلالة المقصودة، فهو يردُّ تأول قوله – تعالي – على لسان المسيح – عليه السلام: " من أنصارى إلى الله " . ([7]) ويقرر أن ذلك التأوُّل مخالفٌ للمعنى المقصود، يقول: "من أنصارى إلى الله " . المراد منه: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى، فإن قلت: ما معنى قوله: من أنصاري إلى الله " . ؟ . قلتُ: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين (نحن أنصارُ الله) . والذى يُطابقه أن يكون المعنى: من جندى متوجهًا إلى نصرة الله ؟ . وإضافة أنصارى خلاف أنصار الله؛ فإن معنى: نحن أنصار الله: نحن الذين ينصرون الله، ومعنى: من أنصارى من الأنصار الذين يختصون بى، ويكونون معى في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرنى مع الله، لأنه لا يُطابق الجواب، والدليل عليه قراءةُ من قرأ: من أنصارُ الله ؟ . ([8])

- **الفصل بين المتلازمين (المعطوف و المعطوف عليه):**

يجاوز الزمخشري مستوى الصحة، إلى التغلغل فى الدلالات العميقة للتراكيب النحوية، إذ إنه يُجيز الفصل بين المتلازمين (المعطوف و المعطوف عليه) مع طول الكلام، و يُجمع النحاة على استكراهه

---

[1] المفصل: ٥١
[2] سورة الجن: ١
[3] الكشَّاف ٤: ٥٣١
[4] سورة إبراهيم: ٤٧
[5] انظر: الكشَّاف ٢: ٤٠٥
[6] المفصل في علم العربية، للزمخشري، تحقيق: على بو ملجم، ط ٢٠٠٣ م، دار الهلال:٤٤
[7] سورة الصف: ١٤
[8] انظر: الكشاف ٤: ٤٤٨ – ٤٤٩

لضياع الدلالة، ولكدِّ الذهن لدى المتلقى، بيد أن الزمخشري حريص على الحبك الدلالي، الذى يُجاوز الفقرة إلى النص .

جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي: " قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن توليتم فإنَّما عليه ما حُمِّل و عليكم ما حُمِّلْتُم و إنْ تُطيعوه تهتدوا و ما على الرسول إلَّا البلاغُ المبينُ . و عدَ اللهُ الذين أمنوا منكم و عملوا الصالحات لَيستخلفنَّكُم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلِهم و لَيُمكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم و لَيُبْدِلنَّهُم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يُشركون بِى شيئًا و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . و أقيموا الصلاة و ءاتوا الزكاة و أطيعوا الرسول لَعلَّكُمْ تُفْلِحون " . ([1]) يقول الزمخشري: " و (أقيموا الصلاة) معطوف على أطيعوا الله و أطيعوا الرسول، و ليس ببعيد أن يقع بين المعطوف و المعطوف عليه فاصلٌ، و إن طال؛ لأن حقَّ المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه.([2])

- <u>قُبح التركيب النحوي:</u>

المراد بالقبيح غير المستقيم: هو الذى لا يكون للتركيب فيه معنى، ما دام اللفظ موضوعًا في غير موضعه، فلا ينسجم من الناحية المعنوية . أو بعبارة أخرى: هو التركيب الذى تختفى مدلولاته، ولا يقف الذهن منها علَى شيءٍ، و مهما تابع الجمل لا يستقيم عنده معنى . ([3]) لذا يستقبح الزمخشري أن أن يُعطف الاسم الظاهر على الضمير، و يستدل على ذلك بالاستعمال والسنن اللغوية، فقد استقبحت العرب أن يُقال: مررتُ بك وزيدٍ . وهذا أبوك و عمرٍو .، كذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت و زيدٍ .

فقد جاء في الكشَّاف، في تفسيره لقوله – تعالي: " إن في السموات و الأرض لآياتٍ للمؤمنين . و في خلقكم و ما يَبثُّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يُوقنون . و اختلاف الليل و النهار و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها و تصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون " . ([4]) قال: فإن قلت: علامَ عطف: (و ما يبثُّ) . أعلى الخلق المضاف، أم على الضمير المضاف إليه ؟ . قلتُ: بل على المضاف؛ لأن المضاف إليه ضمير متَّصل مجرور، يقبُح العطف عليه . ([5]) ويميل الزمخشري إلى التعليل لكل مادة لغوية مطروحة، طالما شهد لها الاستعمال، ووردت نماذجها في الفصيح من كلامهم، و إن قلَّ، ليدل على توسعه في توجيه التراكيب النحوية، و هو ليس بدعًا في ذلك، فالعرب يتوسعون في الظروف و المجرورات .

ومن ذلك جواز الفصل بين المضاف و المضاف إليه، و هو قبيح، يقول ابن يعيش: " الفصل بين المضاف و المضاف إليه قبيح، لأنهما كالشيء الواحد، فالمضاف إليه من تمام المضاف، يقوم مقام التنوين و يُعاقبه، فكما لا يحصل الفصل بين التنوين و المنون؛ كذلك لا يَحْسُن الفصل بينهما " .([6])

وقد أجاز الزمخشري – في الكشَّاف – الفصل بين المضاف و المضاف إليه، لسببين، هما: جواز الفصل بين المتلازمين توسعًا في الكلام . و الثاني: جواز الفصل بين المتلازمين في الضرورة، جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " و كذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركائهم .. " . ([7]) برفع (قتلُ) و نصب (أولاد) و جرِّ (شركاء)، فقد فصل بين المضاف (قتل)، و هو مصدرٌ، و المضاف إليه (شركائهم) بمفعول المصدر، و هو: (أولادهم) .

قال الزمخشري: " و أما قراءة ابن عامر: (قتلُ أولادهم شركائهم) برفع القتل، و نصب الأولاد و جر الشركاء، على إضافة القتل إلى الشركاء، و الفصل بينهما بغير الظرف فشيءٌ؛ لو كان في مكان الضرورات، و هو الشعر، لكان سمجًا مردودًا، كما سمُج و رُدَّ: زجِّ القَلوصَ أبى مزادة، فكيف به في

---

[1] سورة النور: ٥٤ – ٥٦

[2] الكشاف ٣: ٢٢٠

[3] انظر: البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري: ١٦١

[4] سورة الجاثية: ٣ – ٥

[5] الكشَّاف ٤: ٢٤٨

[6] شرح المفصل، لابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، و مكتبة المتنبي، القاهرة، (د . ت):٣: ١٩ - ٢٠

[7] سورة الأنعام: ١٣٧

الكلام المنثور ؟ فكيف به في القرآن المُعجز بحُسن نظمه و جزالته ؟ . و الذى حمله على ذلك أن رأى – في بعض المصاحف – (شركائهم) مكتوبًا بالياء، و لو قرأ بجر الأولاد و الشركاء؛ لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد – في ذلك – مندوحة عن هذا الارتكاب " . ([1])

- **الفصل بين التابع و المتبوع في التركيب النحوي:**

جمهور النحاة على أنه لا يجوز الفصل بين الصفة و الموصوف (العامل و المعمول) بأجنبى، لأن المتلازمين يطلب كلٌّ منهما صاحبه، لأنه يحتاج إليه في سياق التركيب، فهو مقصود؛ لتوضيح الدلالة، إلَّا أن الزمخشري يجوِّز ذلك، على باب من الاستعمال و الاتساع؛ كما في قوله – تعالي: " شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلَّا هو العزيز الحكيم " . ([2])

فقد فصل بين الصفة، و هي قوله: (إله) و بين الموصوف، و هو (قائمًا) بأجنبيين، وهما المعطوفان (والملائكة) (وأولو العلم)، وليس بمعمولين لجملة: (لا إله إلَّا هو)، إنما لهما ارتباط بالعامل الفعلي (شهد) كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلَّا هو، وأنه قائم بالقسط . ويُعلل الزمخشري لذلك بأنه على سبيل الاتساع، و أن العرب تستعمل ذلك، يقول: " فإن قلتَ: هل يجوز أن يكون قوله – تعالي: " قائمًا " . صفة للمنفي؛ كأنه قيل:لا إله قائمًا بالقسط إلَّا هو ؟ . قلت: لا يَبعُد . فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة و الموصوف " . ([3])

- **الفصل بين المتلازمين بضمير الفصل:**

من المعلوم أنه يطرد الفصل بين المتلازمين باعتبار نوعهما، و طبيعة العلاقة بينهما، و نوع الفاصل الذى يعترض المجرى التركيبى، أما بالنسبة للنوع؛ فيكون الفصل سائغًا بين المسند إليه و المسند، و إنما كان سائغًا؛ لأن الترابط بين المتلازمين ترابط اقتضاء، أكثر منه ترابط مجاورة أو اقتران فلابد للمبتدأ من خبر، و لا بد للخبر من مبتدإ، و لذلك قبل النحاة الفصل بينهما؛ كما أن الفصل بضمير الفصل بين المتلازمين المسند و المسند إليه يؤدى معنى تحويليًّا في الجملة، و يُسلم إلى غاية بلاغية.([4])

و يُشير الزمخشري إلى أن الفصل بضمير الفصل بين المتلازمين (المسند و المسند إليه) سائغ و كثيرٌ في الواقع الاستعمالى للحياة اللغوية، و فيه إضافة توكيدية عن المعنى الذى تحمله الجملة النواة، باعتبار عنصريها المركزيين، و هما المسند و المسند إليه (بؤرة الجملة)، أما عن دخول العامل الهامشى (ضمير الفصل) فثمة معنى توكيدى جديد يُضاف إلى معنى التركيب النحوي، و كأنه دعامة يقوي بها الكلام و يؤكِّد، والقول بهامشية ضمير الفصل دليله أن المسند و المسند إليه عنصران مستقلَّان، لا يقتضيان ضميرًا فاصلًا،

والفصل بين المتلازمين بضمير الفصل هو من باب الفصل بالزيادة، كما هو الحال مع ضمير الفصل، الذى يتوسط بين المبتدأ و الخبر، نحو قوله – تعالي: " وأولئك هم المفلحون " . ([5]) وبين ما أصله المبتدأ و الخبر، نحو قوله – تعالي – على لسان نبى الله عيسى المسيح – عليه الصلاة والسلام: " كنت أنت الرقيبَ عليهم " . ([6]) ونحو قوله – تعالي: " إنَّ شانِئَك هو الأبترُ " . ([7])

فقد ذهب الزمخشري إلى أن في الفصل بين المتلازمين بضمير الفصل قيمتين، الأولى: تركيبية، و الثانية: دلالية؛ و تتمثل القيمة التركيبية في أن الفصل بين المتلازمين بضمير الفصل يُفيد الإعلام – غالبًا –بأن ما بعد الضمير خبرٌ لا تابعٌ؛ فحينما نقول: زيد العاقل، فقد يُفهم أن (العاقل) نعت لـ (زيد)،

---

[1] الكشَّاف ١: ٦٦١

[2] سورة آل عمران: ١٨

[3] انظر: الكشَّاف ١: ٣١٧

[4] انظر: في نحو العربية و تراكيبها، د: خليل أحمد عمايرة، ط١، عالم المعرفة، جدة، السعودية، ١٩٨٤م: ١٩٠، و انظر: قواعد تحويلية للغة العربية، لمحمد على الخولى، (د . ط) دار المريخ، الرياض، السعودية، ١٩٨١م: ١٢٣

[5] سورة الأعراف: ١٥٧

[6] سورة المائدة: ١١٩

[7] سورة الكوثر: ٣

و أن الخبر لم يأت بعدُ، و لكنك حين تفصل بين المتلازمين (المبتدأ و الخبر) بضمير الفصل (هو)، فتقول: زيدٌ هو العاقلُ . تكون قد أظهرت أن (العاقلَ) خبرٌ لا نعتٌ .
وتتمثل القيمة الدلالية لهذا التصرف اللغوي المقصود عند الزمخشري في أمرين: الأول: توكيد الكلام و تقويته . و الثاني: الاختصاص، بمعنى أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، لأن وضوح الدلالة و سطوع البرهان، بحيث لا ينبغى لمرتاب أن يقع فيه . ([1]) فجاءت رؤيته في العناية بالموقع الإعرابي، مع بين القيمة الدلالية المترتبة على اختلاف المواقع الإعرابية .
و الملاحظ أن حُسن التركيب و قبحه إنما يعتمدان على قوة الترابط بين المتلازمين، فكلما قوى الارتباط بينهما زاد قُبح الفصل بينهما، و ذلك حرصًا على وضوح دلالة التراكيب النحوية، كما أن المتلازمين يُشكلان الجملة النواة، أو بؤرة الدلالة، و ما يُضاف بين كليهما يخدم تفاصيل الدلالة، التى يقصدها المؤلف . ([2])

- **جواز العطف على معمولي عاملين مختلفين:**

كما لا يجوز – عند جمهور النحاة – العطف على معمولي عاملين مختلفين، و قد أجاز الزمخشري ذلك، فقد جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " إن في السموات و الأرض لآياتٍ للمؤمنين . و في خلقكم و ما يَبثُّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يُوقنون . و اختلاف الليل و النهار و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها و تصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون " . ([3])
يقول: و أما قوله:" آياتٌ لقوم يعقلون " . فمن العطف على عاملين؛ سواء نصبت أو رفعت؛ فالعاملان - إذا نصبت – هما: (إن و في)، أُقيمت الواو مقامها، فعملت الجر في اختلاف الليل و النهار و النصب في (آيات) . و إذا رفعت فالعاملان (الابتداء و في) عملت – أي: الواو القائمة مقام العاملين - الرفع في (آيات) و الجر في (اختلاف) . فإن قلت: العطف على عاملين - على مذهب الأخفش – سديدٌ، لا مقال فيه، و قد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده ؟ . قلت: فيه وجهان عنده:
أحدهما: أن يكون على إضمار (في)، و الذى حسَّنه تقدمُ ذكره في الآيتين قبلها، و يعضده قراءة ابن مسعود: و في اختلاف الليل و النهار، بتقدير (في) . والثاني: أن ينتصب (آيات) على الاختصاص بعد انقضاء المجرور، معطوفًا على ما قبله، أو على التكرير، و رفعها بإضمار هي . ([4])
ويؤيد ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) جواز العطف على معمولي عاملين مختلفين، فبعد أن ينقل كلام الزمخشري يقول: و بعدُ، فالحقُّ جواز العطف على معمولي عاملين، في نحو: في الدار زيدٌ و الحجزةِ عمرُو، و لا إشكال حينئذٍ في الآية . ([5]) و ينتصر ابن الحاجب لرأى الزمخشري، بقوله: و هذه قوة منه واستنباط لمعنى دقيقٍ " . ([6])
فيبدو حرصه على إظهار الإعجازِ الترتيبي و الدلالي في التراكيب النحوية، ولا سيما القرآنية منها .
كما يتضح حرصه على ضرورة الاقتران بين النماذج النحوية المتلازمة، وذلك ناشئ من أحد أمرين:
الأول: إقراره بافتقار أحد المتلازمين للآخر، حيث لا تتضح القيمة الدلالية للمتلازم الواحد بانفصاله عن الآخر، لأنهما يكونان – في التركيب النحوي – معًا كالشيء الواحد؛ يؤديان وظيفة نحوية ذات قيمة دلالية واحدة، من خلال ارتباطهما معًا ببؤرة الجملة،

---

[1] انظر: الكشَّاف ١: ٤٦ – ٤٧، و انظر: مغنى اللبيب: ٤٦١
[2] انظر: الخصائص، لابن جنى (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد على النجار، (د . ط)، دار الهدى، (د . ت)، لبنان، بيروت، ٢: ٣٩٢
[3] سورة الجاثية: ٣ – ٥
[4] انظر: الكشَّاف ٤: ٢٤٨ - ٢٤٩
[5] انظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: د: صالح عبد العظيم الشاعر، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م: ٣٩٥
[6] انظر: شرح الرضى على الكافية، ٢: ٣٧٣

و الثاني: حرصه على كمال الترتيب الوجودى للتركيب النحوي، بتفعيل الضوابط التركيبية، و حرصه على أن تأتى التراكيب النحوية قوية، بعيدة عن الضعف و الخلل و التعقيد الدلالي . ([1])

- التركيب النحوي بين الصحة و الخطأ:

يشير الزمخشري إلى ذلك عند تناوله لمفهوم العوامل، سواء اللفظية أو المعنوية، فيذكر أن العامل اللفظى: هو ما كان له ذكرٌ في الجملة، ظاهرًا في الجملة، نحو: أكلت خبزًا . أو مقدَّرًا، نحو: أخاك في الإغراء، أو نحو: أخاك أخاك . أو نحو: هل عليَّا أكرمته ؟. و هو من العوامل القوية، التي يصل أثرها إلى معمولاتها، من مثل: الفعل، و هو أقواها، و كذلك: الحروف المشبهة بالفعل، و حروف الجر و النصب، و أدوات الجزم .

ثم يتناول العامل المعنوي، و هو ما ليس له ذكرٌ في الجملة؛ ظاهرًا أو مقدَّرًا، مثل الابتداء، الذى هو الخلو من العوامل اللفظية، لذا يذهب إلى أن تركيب الجملة الاسمية قد ارتبط عنصراه بعامل الإسناد، و هو عامل معنوى، مخالفًا بذلك جمهور النحاة، بصريهم و كوفيهم، يقول في المفصل – في المبتدإ و الخبر: " و كونهما مجردين للإسناد هو رافعهما، لأنه معنى قد تناولهما معًا تناولًا واحدًا، من حيث إن الإسناد لا يكون بدون طرفين، مسند و مسند إليه، و نظير ذلك أن التشبيه في (كأنَّ) – لما اقتضت مشبَّهًا و مشبَّهًا به؛ كانت عاملة في الجزءين . ([2])

و من العوامل المعنوية التي أوردها الزمخشري عامل (معنى الجملة) في قوله: (من بحر الطويل)

هم الأهل لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جرَّ يُخذلُ . ([3])

يقول: موضع هذه الجملة (لا مستودع السر) . نصب على الحال، تقديره: حافظين، والعامل في الحال معنى الجملة، لأن قوله: (هم الأهل) معناه: هم المستأنس بهم، القائمون مقام الأهل، و مثل هذا - أى: معنى الجملة – يعمل في الحال، و نظيره: ما شأنُك داعيًا و متضرِّعًا " . ([4])

ولا شك في أن البنية السطحية هي الحاملة للبنية العميقة، تظل تلك العلاقة موجودة، و إن تحركت القوالب اللغوية بالحذف أو بالتبديل، أو بالتغيير، و هذا ما أدركه الزمخشري حين حمل قوله – تعالي: " إنما المؤمنون أخوة " . ([5]) على أن معناه: ليس المؤمنون إلَّا أخوة، و أنهم خلَّصٌ لذلك، متمحضون، و قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، و قد أوضح الزمخشري أن معنى إنما هو ما تعبر عنه إلا، فلم يستطرد في التفرقة بين التركيبين مراعاة لقرينة علم المخاطب، التي عليها المعول في فهم التراكيب النحوية . ([6])

وثمة تراكيب نحوية تبدو على غير المشهور من استعمال العرب، إلَّا أنها صحيحة و حسنة لنكتة صرفتها عن القبح، و من ذلك وقوع التركيب النحوي بين حكمين متناقضين، بين الحسن أو القبح، أو بين الاستقامة عدمها، أو بين الجواز و الرد، أو بين القبول و الإحالة، ومن أمثلة ذلك التركيب النحوي الاسمى، الذى يتم فيه الابتداء بالنكرة و الإخبار عن النكرة بنكرة، فيقع بين الحكمين المتناقضين .

جاء في الكتاب لسيبويه: (هذا باب تُخبر فيه عن النكرة بنكرة) فقد ربط سيبويه حُسن التراكيب و قبحها بأمور تتعلق بالمقام، و قصدية المؤلف، و حال المخاطب، يقول: " و ذلك قولك: ما كان أحدٌ مثلَك . و ما كان أحدٌ خيرًا منك، و ما كان أحدٌ مجترئًا عليك . ففلا مثل هذه التراكيب أخبر المؤلف عن

---

[1] انظر: الفصل النحوي بين مطالب التركيب و قيم الدلالة، د: عبد العزيز موسي على، مجلة دراسات، للعلوم الإنسانية و الاجتماعية،كلية الأميرة عالية، جامعة البلقاء، المجلد ٣٣، العدد ١،المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦م: ١٧

[2] المفصل: ٦٨

[3] البيت للشنفرى (المتوفى ٧٠ ق هـ)، يتخيل فيه الشنفرى أن له أهلًا من الجن، بعدما ضنَّ عليه الدهر بالاستقرار، و كتب عليه أن يعيش طريدًا حتى قُتل، و هو ضمن أبيات لامية العرب، و هو مأخوذ من: شرح ديوان الصعاليك، د: يوسف شكرى فرحات، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م: ٣٨

[4] انظر: أعجب العجب: ١٢، و الكشَّاف ١: ٥٦٣

[5] سورة الحجرات: ١٠

[6] الكشَّاف ٤: ٣١٧

النكرة (أحدٌ) بنكرة، وهي: (خيرًا / مجترئًا)، و إنما حسُن الإخبار – ههنا – عن النكرة، حيث أردت أن تنفي أن يكون - في مثل حاله - شيءٌ أو فوقه، لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تُعلمه مثل هذا . ([1])
وضابط الحسن و القبح في مثل هذه التراكيب هو أفق انتظار المتلقِّي و نمطه، فوفقًا لقرينة علم المخاطب يتحرك التركيب حسنًا و قبحًا، فإذا قلت: كان رجلٌ ذاهبًا . فليس – في هذا – شيءٌ تُعلمه كان جهله، و لو قلت: كان رجلٌ من آل فلان فارسًا حَسُنَ؛ لأنه يحتاج إلى أن تُعلمه أن ذلك في آل فلان، و قد يجهله، و لو قلت: كان رجلٌ في قومٍ عاقلًا . لم يَحْسُن، لأنه لا يُستنكر أن يكون في الدنيا عاقلٌ، و أن يكون من قوم، فعلى هذا النحو يحسنُ و يَقْبُح . ([2])
لذا استحسن الزمخشري الإخبار عن النكرة بنكرة، في قوله – تعالي: " قول معروفٌ و مغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعها أذًى " . ([3]) فقال: و صح الإخبار عن المبتدإ النكرة لاختصاصه بالصفة . ([4])
ويستحسن الزمخشري تقديم المتعلق على عامله، فيما يكون ظرفًا أو اسمًا، و النحاة مجمعون على أن المتعلق كلَّما أخرته كان أحسن، إلا إذا أردت أن يكون له مستقرٌ تكتفي به، فكلَّما قدمته كان أحسن، ذلك بغرض العناية و الاهتمام، فقد وصفه سيبويه بأنه عربيٌّ و جيد .
لذا فهو يستنكر أىَّ تحريك للقوالب في قوله – تعالي: " و لم يكن له كُفُوًا أحدٌ " . ([5]) و يصف من يُجيز تأخير المتعلق (الجار و المجرور) (له) بالجفاء ([6])، يقول: " و أهل الجفاء من العرب يقولون: و لم يكن كفوًا له أحدٌ؛ كأنهم أخروها حيث كانت غير مستقرة . ([7])
ويُعلل الزمخشري لتقديم المتعلق (الجار و المجرور) في قوله – تعالي: " و لم يكن له كُفُوًا أحدٌ".([8]) بأنه لغو غير مستقرٍّ؛ يقول: فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف، الذى هو لغوٌّ غير مستقر و لا يقدَّم، و قد نصَّ سيبويه على ذلك في كتابه؛ فما باله مقدَّمًا في أفصح كلام و أعربه ؟ .
قلتُ: هذا الكلام إنما سِيق لنفي المكافأة عن ذات الباري – سبحانه – و هذا المعنى مصبُّه و مركزه و مركزه هو و هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيءٍ و أعناه و أحقَّه بالتقدم و أحراه . ([9])
يُدرك الزمخشري أن الأصل في التركيب النحوي هو تحقق الفائدة، فإذا حصلت الفائدة جاز الإخبار عن النكرة، لأن الغرض من الكلام هو إفادة المخاطب ÷ فإذا تحققت الفائدة جاز الحكم؛ لذا اشترط النحاة في الابتداء بالنكرة حصولَ الفائدة من الكلام . ([10]) و قد أجاز الزمخشري الابتداء بالنكرة في قوله – تعالي: " و أجلٌ مسمًّى عنده ثم أنتم تمترون " . ([11])
يقول: " فإن قلت: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفًا وجب تأخيره، فلمَ جاز تقديمه في قوله: (و أجلٌ مسمًّى عنده) ؟ . قلتُ: لأنه تخصص بالصفة، فقارب المعرفة، كقوله: " و لعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشركٍ" . ([12]) فإن قلتَ: الكلام السائر أن يُقال: عندى ثوبٌ جيدٌ، و لى عبدٌ كيِّسٌ . و ما أشبه ذلك،

---

[1] الكتاب (ط: عبد السلام هارون) ١: ٥٤
[2] الكتاب (مرجع سابق) ١: ٥٤
[3] سورة البقرة: ٢٦٣
[4] الكشَّاف ١: ٢٩١
[5] سورة الإخلاص: ٥
[6] قال ابن ميادة:
لَتَقْرُبِنَّ قَرَبًا جُلْدِيًّا ما دام فيهنَّ فَصِيلٌ حَيًّا
فقدْ دجا اللَّيْلُ فَهِيًّا هِيًّا
١. انظر: خزانة الأدب و لب لباب العرب، لعبد القاهر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م، و ط١، دار صادر، بيروت، ١٤٠١هـ \ ١٩٨١م .٤: ٦٠، و لسان العرب، مادة: (جلذ)، و الكتاب: ١: ٥٦
[7] الكتاب ١: ٥٦
[8] سورة الإخلاص: ٥
[9] الكشَّاف ٤: ٧٠٤
[10] انظر: مغنى اللبيب: ٦٠٨
[11] سورة الأنعام: ٣
[12] سورة البقرة: ٢٢١

فما أوجب التقديم ؟ .قلتُ: أوجب أن المعني: و أيُّ أجلٍ مسمًّى عنده ؟ تعظيمًا لشأن الساعة، فلما جري فيه هذا المعني وجب تقديمه . ([1])

فالمبتدأ (أجل)، و هو نكرة، و خبره (عنده) و هو ظرف، و جاز الابتداء بالنكرة في هذا الموضع لأنها نكرة مخصصة بوصف، و من شأن الوصف أن يُقلل عموم النكرة، و أن يُقرِّب غموضها و يجليه بعض السيء، و يجعلها قريبة من المعرفة، الأمر الذى يُحقق استفادة للمتلقى مما يُلقى على مسامعه، فائدة يقتنع بها، و يحسن السكوت عليها، و تصلح لأن تعبر عن قصد و بلاغ .

و يُلاحظ من كلام الزمخشري أنه يتجاوز مستوى الصحة و الخطأ في التراكيب النحوية إلى المستوى الجمالى في الحكم على التركيب بالحسن أو القبح، فنحن أمام تذوق للتركيب، و شرح لأسرار حسنه و قبحه، و لسنا أمام قاعدة نحوية صارمة، تُجيز شيئًا و تخطِّئ آخر . ([2])

- <u>التركيب النحوي المستقيم:</u>

ويُقصد بالاستقامة: تلك الصورة التركيبية، الت يكون فيها التركيبُ خاضعًا لما أجرته العرب في كلامها المألوف المستعمل، الذى لا ينفر منه الذوق . و لا يستقيم – عند سيبويه – أن تقول: هذا أنت . لأنك لا تُشير للمخاطب إلى نفسه، و إنما تُشير له إلى غيره؛ ألا ترى أنك لو أشرت له إلى شخصه، فقلت: هذا أنت . لم يستقم . ([3]) وهنا نراه يعظم من دور المقال في تجلية القصد، و في تقريب المعنى، فعنده فعنده أنك لو قلت: هذا هو . لاستقام . ([4])

ونرى الشيء ذاته عند الزمخشري فقد جعل استقامة التركيب شرطًا في تمام الدلالة، جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " الذين يُنفقون أموالهم باللَّيْل و النهار سرًّا و علانيةً فلهم أجرُهم عند ربِّهم و لا خوفٌ عليهم ولا همْ يحزنون . ([5]) يقول: فإن قلت: أيُّ فرقٍ بين قوله: (لهم أجرهم) . و قوله: (فلهم أجرهم) ؟ . قلتُ: الموصول لم يُضمَّن – ها هنا – معنى الشرط، و ضُمِّنه ثمة – إشارة إلى قوله – تعالي: " الذين يُنفقون أموالهم باللَّيْل و النهار سرًّا و علانيةً فلهم أجرُهم .. " .، و الفرق بينهما من جهة المعني؛ لأن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استُحقَّ الأجرُ، وطرحُها عارٍ عن تلك الدلالة.([6])

وأى زيادة لعنصر لغوى تؤثر في الدلالة الكلية للتركيب النحوي، و تجعله أشد استقامة و تعبيرًا عن القصد المُراد، جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " و من بيننا و بينك حجابٌ " . ([7]) قال: " فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله – تعالي: " و من بيننا و بينك حجابٌ " . ([8]) فائدة ؟ . قلتُ: نعم، لأنه لو قيل: و بيننا و بينك حجابٌ . لكان المعنى: إن حجابًا حاصلٌ وسط الجهتين، و أما زيادة (من) فالمعنى: إن حجابًا ابتدأ منًّا و ابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا و جهتك مستوعبَةٌ بالحجاب، لا فراغ فيها؛ فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: و في آذاننا وقر؛ ليكون الكلام على نمط واحد ؟ . قلتُ: هو على نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة، و على قلوبنا أكنة، و الدليل عليه قوله – تعالي: " إنَّا جعلنا على قلوبهم أكنَّةً " . ([9]) و لو قيل: إنَّا جعلنا قلوبهم في في أكنة . لم يختلف المعنى . ([10])

---

[1] الكشَّاف ٤: ٦١١

[2] انظر: اللغة و بناء الشعر، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د . ط) دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م: ١٨

[3] الكتاب ١: ١٤١

[4] انظر: الكتاب ١: ١٤١

[5] سورة البقرة: ٢٧٤

[6] و مثل ذلك قوله – معلقًا على قوله - تعالي: " لن تُقبل توبتهم " . سورة آل عمران: ٩٠ . يقول: " فإن قلت: فلمَ قيل في إحدى الآيتين (لن يُقبل) بغير فاء، و في الأخرى: (فلن يُقبل) ؟ . قلتُ: قد أُوذن بالفاء أن الكلام بُنى على الشرط و الجزاء، و أن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، و بترك الفاء أن الكلام مبتدأ و خبر، و لا دليلَ على التسبيب؛ كما تقول: الذى جاءنى له درهمٌ . لم تجعل المجيء سببًا في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهمٌ . الكشَّاف ١: ٢٩١، ١: ٣٥٢

[7] سورة فصلت: ٥

[8] سورة فصلت: ٥

[9] سورة الكهف: ٥٧

[10] الكشَّاف ٤: ١٦٧

- **التركيب النحوي بين الجواز و الردِّ:**

يجوز عند الزمخشري حمل دلالة التركيب النحوي على ضوء من العوامل اللغوية المقرِّبة للقصد، أى: الميل مع المعنى المقصود؛ و لعل هذا ما تنادى به اللسانيات الحديثة، من أن للنص بنيتان، الأولى: البنية السطحية، و الثانية: البنية العميقة، و أن سطح التركيب هو ما يُخبر عن عمقه و قصده، و أن بنيته السطحية هي الحاملة لبنيته العميقة، و هذا ما يُفهم من كلام الزمخشري – رحمه الله .

كما في قوله – تعالي: " فشربوا منه إلَّا قليلًا منهم " . ([1]) يقول الزمخشري في هذا الصدد: " و قرأ أُبيٌّ و الأعمش: (إلَّا قليلٌ) . بالرفع، و هذا من ميلهم مع المعني، و الإعراض عن اللفظ جانبًا، و هو بابٌ جليل من علم العربية؛ فلما كان معنى (فشربوا منه) في معنى (فلم يُطيعوه) حُمل عليه، كأنه قيل: فلم يُطيعوه إلَّا قليلٌ منهم . ([2])

و المتأمل لتناول الزمخشري أبعاد التركيب الجائز، يجد رؤية تقوم على التوسع و الحرية، من دون اضطرار إلى لىِّ أعناق التركيب، حتى يواءم قواعد اللغة، أو يخضع لرأى نحوى، لذا لا يجوز عند الزمخشري أن تكون (لا) في قوله – تعالي: " لا أقسم بيوم القيامة " . ([3]) لام قسم، وهي عنده إما نافية لمضمون الجملة مؤكدة للنفي مؤكده أو مزيدة، يقول: " فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف – إشارة إلى قوله – تعالي: " و لسوف يُعطيك ربُّك فترضى " ؟ .([4])

قلتُ: هي لا م الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، و المبتدأ محذوف، تقديره: ولأنت سوف يعطيك، كما ذكرنا في لأقسم، أن المعنى لأنا أقسم، و ذلك لأنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء، فلام القسم لا تدخل على الفعل المضارع إلَّا مع نون التأكيد، فبقى أن تكون لام ابتداء، و لام الابتداء لا تدخل إلَّا على الجملة من المبتدإ والخبر؛ فلابد من تقدير مبتدإ وخبر، و أن يكون أصله: و لأنت سوف يعطيك . و و لأنا أقسم بيوم القيامة؛ فإن قلت: ما معنى الجمع بينَ حرفي التوكيد و التأخير ؟ قلتُ: معناه أن العطاء كائنٌ لا محالة، و إن تأخر؛ لما في التأخير من المصلحة . ([5]) فذكر أنه: ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين:

- **أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة، والإخلال بها ضعيف قبيح .**
- **الثاني: أن " لأفعلنّ " في جواب القسم للاستقبال، وفعل القسم يجب أن يكون للحال . ([6])**

و يُعلل الزمخشري لمجيء الصفة مفردة لموصوف مجموع، كما في قوله – تعالي: " و لهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ . ([7]) بأن ذلك من استعمال العرب اللغوي في تواصلهم، و أساليبهم الفصيحة، فنلاحظ في التركيب القرآني مجيء الصفة مفردة، و هي كلمة (مطهرة) لموصوف مجموع، و هو كلمة (أزواج)، و حق الصفة أن تخضع لموصوفها في أربعة من عشرة؛ و يرى الزمخشري أن في (مطهَّرة) أمرين، الأول: أن فيها فخامة لصفتهن . و الثاني: أنها اسم مفعول، دلَّ على الإشهار بأن مطهِّرًا طهرهن .

يقول: " فإن قلت: هلا جاءت الصفة مجموعة، كما في الموصوف ؟ . قلتُ: هما لغتان فصيحتان، يُقال النساء فعلن، وهن فاعلات وفواعل، والنساء فعلت، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة: {من بحر الكامل}

وإذا العذاري بالدُّخان تقنّعتْ واستعجلت نصبَ القدور فملّتِ .([8])

---

[1] سورة البقرة: ٢٤٩
[2] الكشَّاف، ١: ٢٨٠
[3] سورة القيامة: ١
[4] سورة الضحى: ٥
[5] انظر: الكشَّاف ٤: ٥٦٢، ٤: ٦٥٦
[6] الكشَّاف ٤: ٤٠٠
[7] سورة البقرة: ٢٥
[8] و هو للشاعر الجاهلي: عمرو بن قميئة، و ينسب لعلياء بن أرقم، اللغويات: ملَّت: شوت الخبز أو اللحم فى المَلة، وهى الرماد الحار. و الشاهد فيه: الفعل (ملَّت) فهو من باب إعطاء ما لجمع الغائب غير العاقل ما للغائبة أو الغائبات، إذ إن الأكثر أن يُعطى هذا الأمر على الأكثر فى الاستعمال، و تكون الكثرة للمفردة الغائبة، و القلة ما للغائبات، كقولهم: الجذوع انكسرت . و الأجذاع انكسرن . انظر: شرح التسهيل، ١: ١٢٧

والمعنى: و جماعة أزواج مطهرة، و قرأ زيد مطهرات، و قرأ عبيد بن عمير: مطهِّرة، بمعنى: متطهرة . و في كلام بعض العرب: ما أحوجنى إلى بيت الله فأطَّهرَ به طهرةً . أى: فأتطهر به تطهرة، فإن قلت: هلا قيل: طاهرة ؟ . قلت: في مطهرة فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، و هي الإشهار بأن مطهِّرًا طهَّرهنَّ، و ليس ذلك إلَّا الله – عزَّ و جلَّ . ([1])

ولا يصح – عند الزمخشري – إسناد الفعل إلى معنى الفعل، لاختلال الدلالة، و لتعارض الأحداث، وذهاب القصد من الإخبار؛ و إنما الذى يصح هو إسناد الفعل إلى لفظه، فقد جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " و إذا قيل لهم آمنوا كما أمن الناس .. " . ([2]) فإن قلت: " كيف صحَّ أن يُسندَ " قيل " إلى " لا تفسدوا و آمنوا " . و إسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح ؟ . قلتُ: الذى لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل، و هذا إسناد له إلى لفظه، كأنه قيل لهم هذا القول و هذا الكلام، فهو نحو قولك: أُلِّف ضربٌ من ثلاثة أحرف، و منه: زعموا مطيةُ الكذب، و الشاهد فيه إسناد مطية الكذب إلى زعموا . ([3])

- <u>التركيب النحوي و قاعدة التمام:</u>

وهو - عند الزمخشري- كيانٌ تام في أصله، و إن غابت بعض عناصره لعلة صوتية، أو لقيمة تركيبية، أو لنكتة بلاغية، لذا فهو يصف التغيرات التي تُصيب التراكيب النحوية بأنه ضرب من العدول، قصده المؤلف لقصد ما، و لعل هذا ما توصلت إليه المدرسة التوليدية التحويلية، التي جعلت للتركيب نمطان، الأصل و المحوَّل، و تنطلق في توجيه الدلالة من العلاقة بين الأصل و الفرع، و على ضوء من العناصر الأصلية المكونة للتراكيب، و ليس هناك ثمة فارق بين هذا و ما توصل إليه الزمخشري .

فقد ذكر في تفسير قوله – تعالي: " الحمد لله ربِّ العالمين " . ([4]) أن الأصل في الحمد النصب، بفعل مضمر، فقال: و ارتفاع الحمد بالابتداء، و خبره الظرف، الذى هو (لله)، و أصله: النصب، الذى هو قراءة بعضهم؛ بإضمار فعله، على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة، في معنى الإخبار، كقولهم: شكرًا لله، و كفرًا و عجبًا، و ما أشبه ذلك .. و العدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء؛ للدلالة على ثبات المعني و استقراره، و منه: " فقالوا سلامًا قال سلامٌ " . ([5]) رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم – عليه السلام – حيَّاهم بتحية أحسن من تحيتهم، لأن الرفع دالٌ على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده و حدوثه، و المعنى: نحمد الله حمدًا . ([6])

و عنده أن قولنا: " لا إله إلَّا الله " . تركيب تام، ليس فيه من حذف؛ فلا يقدر الخبر بمحذوف، تقديره: موجود؛ لأن الأصل فيه: (الله إله) يوازن قولنا: زيدٌ منطلقٌ . فما فرّع عليه الفرع، قلنا: لا إله إلَّا الله . أفاد هاتين الفائدتين؛ و هما: إثبات الإلهية لله – تعالي – و نفيها عمَّا سواه؛ فإذا (لا إله) في موضع الخبر، (إلَّا الله) في موضع المبتدأ .

يُبيِّن هذا أن (لا) تطلب النكرة أبدًا، فلا يُقال: لا زيد في الدار منطلقٌ . بل يُقال: لا رجل أفضل منك، و كذا إذا كان لنفي الجنس، فإن الجنس يُفيد الشياع، و الشياع نوع من التنكير، و المبتدأ يجب أن يكون معرفة و الخبر نكرة، على ما عليه أصل الباب؛ فإذا وازن هذا الكلام: لا منطلقٌ إلَّا زيدٌ و لا خارجٌ إلَّا عمرو .. تحقق أن المعنى ما حققناه، و ما ذهبوا إليه من تقدير الخبر غير مسدد، و لا يُحتاج إليه قطعًا و الله أعلم . ([7]) و في كلامه السابق مخالفة لما عليه النحويون الذين يقدرون أن الخبر محذوف،

---

[1] الكشَّاف ١: ١١٦

[2] سورة البقرة: ١٣

[3] انظر: الكشَّاف ١: ٧٥

[4] سورة الفاتحة: ٢

[5] سورة الذاريات: ٢٥

[6] الكشَّاف ١: ٢٨

[7] نقلًا عن الدكتور: فاضل صالح السامرائي، الذى نقل ذلك عن: مسألة في كلمة الشهادة، للزمخشري، مخطوطة مصورة في مكتبة برلين، تحمل رقم، ٢٤٠٦١) في كتابه: الدراسات النحوية و اللغوية عند الزمخشري، (د . ط) مطبعة الإشاد، بغداد، العراق، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م: ٢٥١

محذوف، و تقديره: لنا، أو موجود، و يُعربون لفظ الجلالة (الله)بدلًا، فهو تركيب تام، له عنصران، الخبر (لا إله) و المبتدأ (إلَّا الله) .
ومن تمام التركيب النحوي عند الزمخشري وضوح دلالته عند تقدير المحذوف، و عند تحديد موقع المحذوف و نمطه، و دوره – حال الحذف – في نظام الكلام، وفى تمام الشكل و الدلالة، إذ إن جملة القسم لا يظهر ارتباطها بقوله – تعالي: " بل الذين كفروا " . كما لا يظهر ارتباطها بقوله – تعالي: " ص " . و الذهن عند ذكر القسم ينتظر الجواب، و يتوقف متطلبًا له، و يعجز عن أن يتمثل للكلام المذكور معنى مستقيمًا واضحًا، يستشف منه الخيط الممتد، الذى تنتظم فيه عناصر التركيب و الجمل، كما يُوحى – بذلك – كلام الزمخشري، حين يقول: " و مثل هذا النظم الذى يحتاج إلى شيءٍ من الإيضاح؛ حتَّى يستقيم المعني فى أذهان غير المتخصصين، أوفى أذهان غير ذوى الفهم النافذ للأساليب الأدبية، قوله – تعالي: " بل متعت هؤلاء و ٰاباءهم حتَّى جاءهم الحقُّ و رسولٌ مبينٌ . و لما جاءهم الحقُّ قالوا هذا سحرٌ و إنَّا به كافرون . ([1])

- **الأبعاد الجمالية للقبول فى التركيب النحوى:**

- **تأثر التركيب النحوي بالمذهب العقدى:**

يبدو أثر الاعتزال في تخريج الزمخشري للتراكيب النحوية، ومن ثَمَّ قبولها؛ حين يُفرق بين الأسماء و المسميات، فعنده أن الاسم بخلاف المسمى، خلافًا لأهل السنة؛ وعلى هذا الاختلاف أشار إلى وجود محذوف في قوله – تعالي: " وعلم آدم الأسماء كلَّها " .([2]) فقد جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " وعلم آدم الأسماء كلَّها " . ([3]) أي: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم لابد له من مسمى، ثم يفر من القول بأن الاسم هو المسمى بقوله: فإن قلت: هلَّا زعمت أنه حُذف المضاف، وأُقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل: وعلَّم آدم مسميات الأسماء ؟ قلتُ: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله: " أنبئوني بأسماء هؤلاء " . ([4]) فكما علَّق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات؛ و لم يَقُلْ: أنبئوني بهؤلاء، و أنبئهم بهم؛ وجب تعليق التعليم بها، فإن قلت: فما معني تعليمه أسماء المسميات ؟ قلتُ: أراه الأجناس التي خلقها، و علَّمه أن هذا اسمه فرس، و هذا اسمه بعير، و هذا اسمه كذا، و علمه أحوالها، و ما يتعلق بها من المنافع الدينية و الدنيوية . ([5])
ومن الملاحظ أن الزمخشري - في تناوله للتراكيب النحوية - لم يخالف الأصول اللغوية؛ لأن الاختلاف بين الاسم والمسمى اختلاف لفظي، لا يؤثر على معتقد من المعتقدات، لذا قد يُقال – باطمئنان – إن الزمخشري لم يبعد عن طبيعة اللغة، وما تحتمله من تفسيرات مقبولة، لكنه اختلاف بين الحقيقة و المجاز، فاعتقاد يحمله على الحقيقة، والآخر يحمله على المجاز، وهذا صنيع الزمخشري، الذى يحمل ما خالف معتقده من التراكيب النحوية على التمثيل والتكنية والمجاز .([6])

- **التركيب المسبوك المحبوك:**

يقتضى نظم الكلام علاقة تربط بين أجزائه، وخيطًا تتنظم فيه تراكيبه وألفاظه، وعقلًا يصوغ عباراته فى تآخٍ وتلاؤمٍ يجعلها مسبوكة محبوكة، لأن الكلام – فى حقيقته – ناطقية الإنسان وإحساسه المتدفق وفكره الواعيً، ووجدانه الدافئ . لذا يحرص المؤلف على ائتلاف عناصر تركيبه واندماجها فنيًّا؛ فإذا ما عبر عمَّا فى نفسه، جاءت تراكيبه متسقة مع دلالتها .

[1] سورة الزخرف: ٢٩ – ٣٠ انظر: الكشاف ٤: ٢١٧ و ما بعدها . و البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري: ١٩٢
[2] سورة البقرة: ٣١
[3] سورة البقرة: ٣١
[4] سورة البقرة: ٣١
[5] انظر: الكشَّاف ١: ١٣١
[6] كما في تناول الزمخشري لآيات الصفات لله – سبحانه – وكذلك لآيات الرؤية .

وتستمد دراسة الزمخشري للتركيب، أوالنظم، أوالتأليف، أوالكلام قوتها من فهم صاحبها، ولِمَا استوعبه من صنيع عبد القاهر، الذى يُعدُّ عملُه تلخيصًا دقيقًا لمن سبقوه، في حين بدا المصطلح عنده يُعنَى ببيان الروابط والعلاقات بين الجمل، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضًا، وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض، في إشارة منه إلى أن التركيب يعتمد على سبك ألفاظه وحبك معانيه .([1]) في إشارة منه إلى ما يُقرره المحدثون، من القول بأن إدراك أبعاد التركيب الداخلية و الخارجية، هما عاملان مهمَّان في فهم اللغة، و تفسير دلالتها، و تحديد قصدية النص .

يقول الزمخشري، في قوله – تعالي: " ألم . ذلك الكتاب . لاريب فيه . هدىً للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون . و الذين يؤمنون بما أُنزل إليك و ما أُنزل من قبلك و بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحون ".([2]): " إن جملة: (أولئك على هدى من ربهم) . في محل رفع؛ إن كان: يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلَّا فلا محل لها؛ ونظم الكلام على الوجهين أنك؛ إن نويت الابتداء بـ:(الذين يؤمنون بالغيب) . فقد ذهبت مذهب الاستئناف ([3])، وذلك أنه لما قيل: (هدى للمتقين) .

وأُختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى، واتَّجه السائل أن يسأل، فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟ فوقع قوله: (الذين يؤمنون بالغيب) إلى ساقته – أي إلى آخره – كأنه جواب لهذا السؤال المقدَّر، و جيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم، التي استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم، و يفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم؛ أي: الذين هؤلاء عقائدهم و أعمالهم أحقَّاء بأن يهديهم الله، ويعطيَهم الفلاح .([4]) ويقرِّر الزمخشري أن أصل الارتباط في التركيب هو علاقة الإسناد مع الإفادة و الاستقلال، فقد جعله – أى: التركيب - ما يتألف من كلمتين فأكثر؛ فيقول: " و الكلام: هو المركب من كلمتين، أُسندت إحداهما إلى الأخرى، و ذلك لا يتأتى إلا في اسمين؛ كقولك: زيدٌ أخوك.، و بشرٌ صاحبك . أو في فعل و اسم، نحو قولك: ضُرِب زيدٌ . و انطلق بكر، و تسمى الجملة ".([5]) وفي هذا التناول نظرة للجملة أو الجمل، من حيث الألفاظ ووضوحها، و الجملة أو الجمل، من حيث ترتيبها، و تآخيها مع ما قبلها، و مع ما بعدها، و مطابقتها لقصد المؤلف؛ ووجودها في الفكر الجمعي لمتلقيها و لجماعتها اللغوية،

- <u>التركيب النحوي و البعد النفسي:</u>

لعل مما أضافه الزمخشري إلي دراسة التركيب هو دراسته له على ضوء من نفوس أصحابه و أخوالها، فهو يؤكِّد المعاني قبلًا في النفوس، و أن تلك المعاني هي رِدَّةٌ وجدانيةٌ لموقف عايشه المؤلِف (البعد النفسي)، فلابد أن تُراعَى تلك الأحوال في تفسير النصوص، وفي إعادة تحليلها من قبل المتلقِّي، فردًا كان أومجموعًا .

وينبغي – عنده – لتلك الذات الناقدة أن تتحلي بالفكر العميق، البصير بشئون النفس، و ما يعتريها من أحوال و انفعالات، وما يُحيط بها من أحوال شاهدة؛ يقول في قوله – تعالي: " أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله إن كنت لمن الخاسرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكونَ من المحسنين . بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ".([6])

---

[1] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ١٨٩

[2] سورة البقرة: الآيات من ١ -٥

[3] ومثله فى ذلك الاستئناف فى قوله – تعالي: " إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده " . سورة يونس: ٤، فقد جاء الاستئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه . انظر: الكشاف ٢: ٢٠٨

[4] انظر: الكشَّاف ١: ٥٦ - ٥٧

[5] المفصل: ٦

[6] سورة الزمر: ٥٦ - ٥٩

يقول: " فقوله – تعالي: " بلى قد جاءتك آيآتي " . جواب لقوله: " أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين " . و قد بيَّن سبب تأخر جواب القرينة الثانية؛ فيقول: هلَّا قرن الجواب بما هو جواب له، و هو قوله – تعالي: " لو أن الله هداني ". و لم يفصل بينهما بآية ؟. قلتُ: لأنه لا يخلو إمَّا أن يقدِّم على أخرى القرائن الثلاث، فيفرق بينهما؛ و إما أن تؤخَّر القرينة الوسطى، فلم يَحْسُن الأول؛ لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن، و أما الثاني فلما فيه من نقص الترتيب، و هو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمنى الرُّجعة؛ فكان الصواب ما جاء عليه، و هو أنه حكى أحوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عمَّا اقتضى الجواب ".([1])

ومما تقدَّم نرى الرجل يركِّز على دور هيئة التركيب أوالنظم في تحديد المعنى المراد من الكلمة داخل الاستعمال اللغوي عبر وعي جيد للفروق اللغوية الدقيقة بين الكلمات .إذ قد عُنى بدراسة التركيب، و ما له من دور دلالي جماليّ، كما أدرك قدرة التركيب على إيصال المعني إلى العقل، و بمعاونة لغة الجسد إلى القلب؛ في صورة يتوافر لها عنصرا الذوق و الجمال، قادرة على تصوير المعاني أدق تصوير، حتى يصل إلى المتلقي؛ فيأخذه بالقبول، فيثبت في عقله ووجدانه؛ فيتفاعل مع مُلقيه، ويتوحد معه

يقول في قوله – تعالي: " وظنوا أنهم مانعتُهم حصونُهم من الله شيئًا ".([2]) فإن قلتَ: أي فرق بين قولك: ظنوا أنهم حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، و بين النظم الذى جاء عليه ؟ قلتُ: في تقديم الخبر على المبتدأ دليلٌ على فرط وثوقهم بحصانتها و منعها إيَّاهم، و في تصيير ضميرهم اسمًا لأنَّ؛ و إسناد الجملة إليه دليلٌ على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزَّة و منَعَةٍ، لا يبالَي معها بأحد يتعرَّض لهم، أو يطمع في معازَّتهم؛ و ليس ذلك في قولك:و ظنوا أنهم حصونهم تمنعهم ".([3])

فهو – هنا – يشير إلى أن قول القائل: و ظنوا أنهم حصونهم تمنعهم، أو أن حصونهم مانعتهم لا يصوِّر ما في نفس المتكلم، و لا يطابق حاله؛ بخلاف ما جاء عليه؛ فإن الخصوصيات التي رُوعيَت في بناء الجملة القرآنية أشارت إلى كل ما في نفوسهم؛ من خواطر القوة و المُتعة، و الوثوق بحصانتها ".([4])

- <u>التركيب النحوي و مراعاة قرينة علم المخاطب:</u>

يفسر الزمخشري التراكيب على ضوء من قرينة علم المخاطب، و على ضوء من المقام و معطيَّاته؛ و قصد المتكلم، و استخفافًا؛ فقد تُحذف عناصر لتركيبيَّة، و يأتي - ما بقى - منصوبًا مثل نصب الاسم في الأمر، أو التحذير، أو الحكاية، أو الإعلام، أو التوضيح، أو التهديد، أو غير ذلك . فقد جاءت تراكيب مختصرة، حُذف بعض عناصرها، و جاءت عناصرها اللغوية منتصبة، (الحذف مع النصب) مثل قوله – تعالي: " انتهوا خيرًا لكم ".([5]) و عند الزمخشري أن المحذوف من عناصر هذا التركيب معلوم لدى المتلقي من سياقه، أي من الموقف الذى قيل فيه التركيب، فيفسر انتصاب كلمة (خيرًا) بما يبرز دور المقام و ملابساته الخارجية في توجيه التأويل، و استكناه القصد، مع مراعاة علم المخاطب و أفقه؛ و هو بذلك يتابع رأي سيبويه؛ و يذهب إلى أن انتصابها بفعل مضمر و هذا الفعل لا يجوز إظهاره، و المعنى – في هذا الموضع – على الأمر، تقديره: اقصدوا، أو ما أشبه ذلك، يقول: لما بعثهم على الإيمان، يعنى: في قوله (فآمنوا خيرًا لكم) . ([6]) و على الانتهاء عن التثليث، يعنى في

---

[1] الكشَّاف ٤: ١٢٣ و ما بعدها

[2] سورة الحشر: ٢

[3] الكشَّاف ٤: ٤٢٦

[4] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ١٩٨

[5] سورة النساء: ١٧١

[6] سورة النساء: ١٧٠

قوله: (انتهوا خيرًا لكم) . عَلِمَ أنه يحملهم على أمر، فقال: (خيرًا لكم) . أي: اقصدوا، و أتوا خيرًا لكم؛ مما أنتم فيه من الكفر و التثليث، و هو الإيمان و التوحيد ". ([1])

و قد يعمد المؤلِّف إلى حذف عنصر لغوى أو أكثر من التركيب احتفاء بقرينة علم المخاطب، و مراعاةً لأفق انتظاره حول القصد من الخطاب، حتى و إن خالف الأصول الكلامية . كما فى قوله – تعالي: " " قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدِّقًا لما بين يديه و هُدًى و بشرى للمؤمنين". ([2])

يقول الزمخشري: " فإن قلتَ: كان حقُّ الكلام أن يُقال: على قلبي . قلتُ: جاءت على حكاية الله – تعالي – كما تكلَّم به؛ كأنه قيل: قل: ما تكلمت به من قولى: من كان عدوًّا لجبريل، فإنه نزله على قلبك . فإن قلت: كيف استقام قوله: (فإنه نزله) جزاءً للشرط ؟ . قلتُ: فيه وجهان: أحدهما: إن عادى جبريل أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيثُ نزَّل كتابًا مصدقًا للكتبِ بين يديه .. و الثانى: إن عاداه أحدٌ فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك بالقرآن مصدِّقًا لكتابهم و موافقًا له . ([3])

- <u>التركيب المقبول:</u>

إن قارئ الكشّاف ليستشعر أن صاحبه مهموم بُحسن الكلام و اختلاله، لا بمجرد الحكم على صحته أو خطئه فحسب؛ فنحن أمام نحويٍّ متذوق للتراكيب، و قد ذكر الزمخشري أن بعض التراكيب القرآنية قد ارتكزت جماليتها على الكناية و بلاغتها، و إن تلك السمة البديعة تقوم على حذف بعض العناصر المكونة للتركيب النحوي، كما في حذف المضاف من قوله – تعالي: " أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله .. " . ([4]) فيحمل الزمخشري التركيب: (فرطت في جنب الله) . على معنى: فرطت في ذات الله، ثم يرد زعم واهم بأن ذكر الجنب كلا ذكر، و يحمل الآية على تقدير مضاف محذوف؛ سواء ذُكر الجنب أو لم يُذكر، و المعنى: في طاعة الله و عبادة الله، و ما أشبه ذلك . ([5])

و يجعل الزمخشري التركيب النحوي معبرًا – بترتيب معين – عن حالة نفسية معينة، و أن ثمة مقامًا و قصدًا يُلزم المؤلف ترتيبًا للتركيب، من دون غيره، بالتعاضد مع ما أسماه الزمخشري: الجمع بين القرائن؛ لئلَّا يتم تبتير النظم، أو لئلَّا يُنقص ترتيبه، لأن في مجيئه على نسق خاص حكايةً لأقوال النفس على ترتيبها و نظمها . ([6])

ويربط الزمخشري التركيب النحوي بأصول النحو و المعنى المقصود منه و الأبعاد البلاغية، فهو يحدد المعنى وفقًا لعلاقته بضوابط النحو، في كثير من الأحيان، و يُرجح وجهًا نحويًا أو أكثر على ضوء من سمو المعني و بلاغته، فهو لا يسير وفقًا لما أجمع عليه النحاة، إنما له قريحة يُعملها في كل تركيب، واضعًا نصب عينيه، ذلك العلم المضفور من ثلاثية النحو و المعنى و البلاغة . فهو يورد آراء النحاة، ثم يعقب برأيه، فقد ذكر في تفسير قوله – تعالي: " ألم . ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه . هدى للمتقين".([7]) أن محل قوله – تعالي: (هدًى للمتقين) الرفع، لأنه خبر مبتدإ محذوف، أو خبر – مع لا ريب فيه – لذلك، أو مبتدأ؛ إذا جُعل الظرف المقدَّمُ خبرًا، و يجوز أن يُنصب على الحال، و العامل فيه معنى الإشارة أو الظرف .

ثم يُبرز المعنى على ضوء من الأبعاد البلاغية، التي تتحكم في كل توجيهاته، بأن التراكيب النحوية قد تتناسق من داخل أنفسها، و ذلك الترابط أقوى من الترابط اللفظي، يقول: " و الذى هو أرسخ عُرقًا في البلاغة أن يَضرب عن هذه الحال صفحًا، و أن يُقال: إن قوله: (ألم) جملةٌ برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و (ذلك الكتاب) جملة ثانية، و (لا ريبَ فيه) ثالثة، و (هدى للمتقين) رابعة، وقد أُصيب بترتيبها مفصل البلاغة، و موجب حُسن النظم، حتى جيء بها متناسقة، هكذا من

---

[1] الكشَّاف ١: ٥٩٣

[2] سورة البقرة: ٩٧

[3] الكشاف ١: ١٦٩

[4] سورة الزمر: ٥٦

[5] انظر: الكشَّاف ٤: ١٢٦

[6] انظر: تعليق الزمخشري على قوله – تعالى: " لو أن الله هداني " . سورة الزمر: ٥٧ . انظر: الكشَّاف ٤: ١٢٣

[7] سورة البقرة: ١ – ٣

غير حرف نسق؛ و ذلك لمجيئها متآخية، أخذًا بعضها بعُنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، و هلم جرًّا إلى الثالثة و الرابعة، و بيان ذلك أنه نبَّه – أوَّلًا – على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أُشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريرًا لجهة التحدِّي، و شدًّا من أعضاده، ثم نفي عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة و تسجيلًا بكماله . ([1])

- قبول التركيب المصدَّر بضمير الفصل:

قبِل الزمخشري ذلك التركيب المبدوء بضمير الشأن، حين يتقدم الجملة، مما يسميه النحاة: ضمير الشأن أو القصة أو الحديث، والمجهول عند الكوفيين؛ وذلك نحو قولك: هو زيدٌ منطلقٌ . أى: الشأن و الحديث زيدٌ منطلقٌ، و منه قول الله – عزَّ و جلَّ: " قل هو اللهُ أحدٌ " . ([2]) و يتصل بارزًا فى قولك: ظننته زيدٌ قائمٌ . و حسنته قام أخوك . وأنه أمةُ الله ذاهبةٌ . وأنه يأتينا نأته .. ومستكنًا فى قولهم: ليس خلق الله مثله، و كان زيدٌ ذاهب، و كان أنت خير منه، و كاد تزيغ قلوب فريقٌ منهم، و يجىء مؤنثًا؛ إذا كان فى الكلام مؤنث، نحو قوله – تعالي: " فإنها لا تعمى الأبصار " . ([3]) فقد قبل الزمخشري هذه التراكيب مع ما بها من إبهام و تعميم، لكن الزمخشري حملها على الصحة لورود أمثلتها فى الصحيح المقبول من كلامهم . ([4]) جاء فى الكشاف: " (فإنها): الضمير ضمير الشأن أو القصة، يجىء مذكرًا و مؤنَّثًا، و يجوز أن يكون الضمير مبهمًا يُفسِّره الأبصار، و فى (تعمى) ضمير راجعٌ إليه . ([5])

- قبول التركيب المنفى:

إن تأمُّل أبواب المفصَّل و تطبيقات الكشَّاف يكشف – لنا – تراكيب، بعضها يقبله الزمخشري و يستحسنه، و بعضها الآخر يتوقف – عنده – يرفضه، و لا يقبله، و هو ما سيكشف عنه هذا الفصل من الدراسة . بيد إن هذه التراكيب التى لا يقبلها الزمخشري تتفاوت فى درجة القبول أو الرفض، أو الاستحسان أو التقبيح، مما يدفع إلى دراستها و تحليلها، فى ضوء الأصول النحوية والأسس التى أشار إليها الزمخشري، أو ضمَّنها تطبيقاته، من دون التصريح بها، و لاسيَّما سمو المعني و جمال البلاغة، بعيدًا عمَّا سلط عليه الزمخشري فكره الاعتزالي .

حيث إن الأصل فى الخبر أن يثبت؛ لاعتماده على تقديم الفائدة إلى المتلقي، ما لم يعرض لمضمون الخبر عارضٌ، يُخرجه عن ثبوته، من نحو النفى، و النفى من العوارض التى تعرض لبناء التركيب، فتفيد عدم ثبوت نسبة المسند إلى المسند إليه فى الجملة الاسمية و الفعلية على السواء، إذ هو يتَّجه – فى حقيقته – إلى المسند، أما المسند إليه فلا يُنفى، و قد يتلو النفى الإثبات فى الجملة الاسمية؛ بأن يأتي صدر الجملة مثبتًا، و يتصدر النفى الخبر، نحو قوله – تعالي: " و الله لا يهدى القوم الظالمين " . ([6])

يُلاحظ أن ذلك التركيب القرآنى قد مثَّل جملة كُبرى، صدرها مثبتٌ، و صدر خبرها منفىٌّ، و هو ما سمَّاه القدماء بالجملة الكبري، و حين نتناولها – من حيث الإثبات أو النفى، لا يمكن وصفها بالنفى، لأن النفى لم يتصدر الجملة كلَّها، و لكنه دخل على عنصر مكون منها، هو الخبر، (لا يهدى القومَ الظالمين) . فعدم هداية القوم الظالمين مخبر به عن المبتدإ (الله)، و هو ثابتٌ له، و قد أخبر عن

---

[1] و مثله: قوله – تعالي: " و لو أنهم صبروا " . سورة الحجرات: ٥، فقد عدَّها الزمخشري من باب الحمل على المعنى، مع طرح الألفاظ جانبًا، يقول: (و لو أنهم صبروا) في موضع الرفع على الفاعلية، لأن المعنى: و لو ثبت صبرهم .، و مثله – أيضًا – قول الله – تعالي: " اقتتلوا " . في قوله – تعالي: " و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا .. " . سورة الحجرات: ٩، قال: " فإن قلت: ما وجه قوله: اقتتلوا " . و القياس: اقتتلتا . كما قرأ ابنُ أبى عبلة، أو: اقتتلا . كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين ؟ . قلت: هو مما حُمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم و الناس . الكشَّاف ١: ٥٠، ٤: ٣١٠، ٤: ٣١٥

[2] سورة الإخلاص: ١

[3] سورة الحج: ٤٦

[4] لمفصل: ٢٩

[5] الكشَّاف، ٣: ١٤٥

[6] سورة الصف: ٧، و سورة الجمعة: ٥

المبتدأ بجملة فعلية . ([1]) ويجب فى التركيب الفعلي المنفى أن تتصدرَ أداة النفى، لأن مضمون التركيب قائم على الفعل، و هو مقدم رتبة لا دلالة على الفاعل، و يكون النفى بأداة نفى معلومة مصرَّح بها أو مقدَّرة، أو ما يُسمى عند البعض، بالنفى الضمنى، و لا يقبل التركيب الفعلى النفى إلّا فى صورَة الفعل الماضى أو المضارع، أما الأمر فلا، لتناقض الدلالة؛ إذ لا يصح نفى ما يُطلب على سبيل الإلزام؛ لأن ذلك اضطراب للدلالة و إخلالٌ بها . و قد ألمح الزمخشري إلى تصدُّر أداوت النفى فى التركيب الفعلي، فى صورته الماضية؛ و هو – فى تركيب الاستثناء الناقص المنفى - نفى ضمنى، و هو إلى الإثبات أقرب، كما قال – تعالي: " لا يُحبُّ اللهُ الجهر بالسُّوء من القول " . ([2])

يقول الزمخشري: " كأنه قيل: لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوء إلَّا الظالمُ . على لغة من يقول: ما جاءني زيدٌ إلَّا عمرو . بمعني: ما جاءنى إلّا عمرو، ([3]) و منه: " لا يعلم مَنْ فى السماوات و الأرض الغيبَ إلَّا اللهُ . ([4]) فإن مضمون هذا التركيب النحوي يُبت المجيء إلى عمرو، و ينفيه عن زيد، و عن غيره؛ بإخراجه من حكم الإثبات إلى دائرة النفى، و هذا التركيب انتقض نفيه بإلَّا، فعدل به المؤلف عن أصل الدلالة إلى تركيب يخدم نكتة دلالية، و هى القصر و التخصيص .

ويتابع الزمخشري تحليله لهذا التركيب الفعلي، فى معرض تناوله لقوله – تعالي: " لا يعلم مَنْ فى السماوات والأرض الغيبَ إلَّا اللهُ . ([5]) و يُشير إلى أن المراد به، نفى العلم لمن فى السماوات و الأرض إلَّا على الله، و كأن المقصود، إن كان الله ممن فى السماوات و الأرض فهم يعلمون الغيب،، يعنى أن علمهم للغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم، و يؤيِّد ذلك أن وجود الله – تعالي – فى السماوات و الأرض على سبيل المجاز، و أن كونهم فيها حقيقة، و من المعلوم أن استخدام المجاز و الحقيقة فى عبارة واحدة، و على حدث لغوى واحد غير صحيح . وقد حلل الزمخشري التركيب القرآني السابق، بأنه جاء على لغة بنى تميم، ليئول التركيب إلى النفى المطلق، يقول: فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله يتعالي أن يكون ممن فى السماوات و الأرض ؟. قلتُ: جاء على لغة بنى تميم، حيث يقولون: ما فى الدار أحدٌ إلَّا حمارٌ . يُريدون: ما فيها إلَّا حمارٌ، كأن أحدًا لم يُذْكَرْ، ومنه قوله: { من بحر الطويل }

عشيَّة ما تُغْنِي الرماحُ مكانَها ولا النَّبْلُ إلّا المشرفيُّ المصمَّمُ .([6])

وقولهم: ما أتاني زيدٌ إلَّا عمرو، و ما أعانه إخوانكم إلَّا إخوانُه؛ فإن قلتَ: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميميِّ على الحجازيِّ ؟ . قلت: دعت إليه نكتة سريَّةٌ، حيث أخرج المستثنى .. ليئول المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن فى السماوات والأرض فهم يعلمون الغيب . ([7]) وهذا يقوي قولهم: ما أتانى زيدٌ إلَّا عمرو، و ما أعانه إخوانُكم إلَّا إخوانُهُ؛ لأنها معارف ليست الأسماء الآخرة بها و لا منها . ([8]) وذكر ابن مالك أن التميميين يجيزون رفع المتأخر فى أسلوب الاستثناء على الإتباع للمتقدم، لرفع توهم المخاطب أن المتكلم لم يعرض له هذا الذى أكَّد به فذكره توكيدًا، و اشترط استقامة المعنى و الاستغناء عن المتأخر، فإن غاب شرط تعين النصب عند الجميع . ([9])

- **التركيب الحسن:**

---

[1] انظر: بناء الجملة العربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف – رحمه الله: ٢٨٠

[2] سورة النساء: ١٤٨

[3] الكشَّاف ١: ٥١٩

[4] سورة النمل: ٦٥

[5] سورة النمل: ٦٥

[6] و البيت: لضرار بن الأزور، و هو فى شرح التسهيل بلا نسبة، و الشاهد فيه: إبدال المشرفيِّ، و هو: السيف من الرماح و النبل، و إن لم يكن من جنسها، و ذلك على المجاز . انظر: الكتاب، ٢: ٣٢٥، وخزانة الأدب، ٢: ٥، و شرح التسهيل، ٢: ٢٠٨

[7] انظر: الكشَّاف ٣: ٣٣٥

[8] الكتاب، ٢: ٣٢٥

[9] انظر: شرح التسهيل، ٢: ٢٠٨

ويستحسن الزمخشري دقة التراكيب في لغة القرآن الكريم، وأنها وحدات لغوية نحوية منتخبة، يقول: فإن قلت: هل من فرق بين (حتى تخرج) . ([1]) و إلى أن تخرج ؟ .قلتُ: إن حتى مختصة بالغاية المضروبة، تقول: أكلت السمكةَ حتى رأسِها . و لو قلتَ: حتى نصفها أو صدرها لم يجز، و(إلى) عامة في كل غاية، فقد أفادت (حتى) بوضعها أن خروج الرسول – صلى الله عليه و سلم – إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه . ([2])

ولا يردُّ الزمخشري ذلك التركيب النحوي، الذى تتأثر دلالته بالتضمين، و هو: أن يُضمن فعل معنى فعل آخر، كما في قوله – تعالي: " و ما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكفروه و الله عليمٌ بالمتقين " . ([3]) فيتحول من التعدى لمفعول واحد، إلى أن يتعدى لمفعولين، يقول – في دلالة الفعل (كفر): " فإن قلت: لمَ عُدى إلى مفعولين، و شكر و كفر لا يتعديان إلَّا لمفعول واحد ؟ . تقول: شكر النعمة و كفرها ؟ . قلتُ: ضُمِّن معنى الحرمان . فكأنه قيل: فلن تُحرموه، بمعنى: فلن تُحرموا جزاءه . ([4]) في إشارة منه إلى أن مدار القبول النصى على وجود وجه من أوجه النحو، مع سمو المعنى، و جمال العبارة، و استحضار الأبعاد النفسية للمتلقين من خلال تراكيبهم النحوية، التي يُخاطبون أو يتكلمون بها .

ويوجِّه الزمخشري الدلالة العميقة للتراكيب النحوية على ضوء من التضمين، الذى يعضِّده القياس، كما فى قوله – تعالي: " أيحب أحدكُم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميْتًا فكرهتموه و اتَّقوا الله إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رحيمٌ". ([5])

يقرر الزمخشري أن الفعل (كره) الأصل فيه أن يكون متعديًا بنفسه، لكنه عُدِّى بإلى، فى قوله – تعالي: " وكرَّه إليكم الكفرَ . ([6]) فإن قلت: هلَّا عُدى فكُرِّهتموه بإلى، كما عُدى بإلى فى: و كرَّه إليكم الكفر " . ؟ . قلتُ: القياس تعديه بنفسه؛ لأنه ذو مفعول واحد، قبل تثقيل حشوه – أى تضعيف عينه – تقول: كرهت الشىء . فإذا ثُقِّل؛ استدعي زيادة مفعول، و أما تعديه بإلى فتأوُّلٌ و إجراء لكره مجرى بغُضَ، منقول من بغُضَ إليه الشىء؛ فهو بغيضٌ إليه، كقولك: حُبَّ إليه الشىءُ؛ فهو حبيبٌ إليه . ([7])

ويتناول (جار الله الزمخشري) تأثر التراكيب النحوية بالتقارض اللغوي بين الحروف و الأدوات، و هو باب مما تقوم على صحة الدلالة و قوة العبارة و متانة التركيب، فقد قال الزمخشري بتقارض الحروف، كما في قوله – تعالي: " هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا " . ([8]) قال: " (هل) بمعنى (قد) في الاستفهام خاصَّة، و الأصل: أَهَلْ ؟ . و المعنى: أقد أتى على التقرير و التقريب جميعًا ؟ . أى: أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن مذكورًا فيه، أى: كان شيئًا منسيًّا غيرَ مذكور، نطفةً في الأصلاب . ([9])

ومن التراكيب الحسنة عند الزمخشري تلك التي اعتمدت في تمام دلالتها على أحد المثلين، مع حذف المثل الآخر، كراهة التكرير، لأن البلاغة و الجزالة هي إلى الاختصار أقرب، جاء في الكشَّاف: " و المثل يُحذف كثيرًا في كلامهم، كقولك: ضربتُه ضربَ زيدٍ . تريد: مثلَ ضربه . و أبو يوسف أبو حنيفة، تُريد: مثله، ولا هيثم الليلةَ للمطيِّ، و المعنى: و لا مثل هيثمٍ يسوقُها؛ و قضيةٍ و لا أبا حسن لها، أى: قضية معروضة، و لا حلَّ لها، لعدم وجود مثل أبي حسن لحلِّها، تريد على الترتيب: و لا مثل هيثم، و لا مثل أبى حسن، كما أنه يُراد في نحو قولهم: مثلُك لا يفعل كذا، تريد أنت، و ذلك أن المثلين يسُدُّ أحدهما مسدَ الأخر، فكان في حكم شىء واحد . ([10])

---

[1] إشارة إلى قوله – تعالي: " و لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم .. " . سورة الحجرات: ٥
[2] الكشَّاف ٤: ٣١٠
[3] سورة آل عمران: ١١٥
[4] الكشَّاف ١: ٣٦٨
[5] سورة الحجرات: ١٢
[6] سورة الحجرات: ٧
[7] الكشاف ٤: ٣٢٢
[8] سورة الإنسان: ١
[9] الكشَّاف ٤: ٥٦٨
[10] انظر: الكشَّاف ١: ٣٥٣

وقد استحسن الزمخشري حذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه؛ في قوله – تعالي: " و حملناه على ذاتِ ألواحٍ و دُسُرٍ " . ([1]) أراد السفينة، و التقدير: و حملناه على سفينة ذات ألواح و دسر . و قوله – تعالي: " ذات ألواح و دسر " . من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها، و تؤدِّى مؤدَّاها، بحيث لا يُفصل بينها و بينها، و نحوه: و لكنَّ قميصى مسرودةٌ من حديد . أراد: و لكن قميصى درعٌ، و كذلك: و لو في عيون النازيات بأكرع . أراد: و لو في عيون الجراد، ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة و بين هذه الصفة، أو بين الدرع و الجراد و هاتين الصفتين لم يصحْ، و هذا من فصيح الكلام و بديعه . ([2])

- <u>التركيب النحوي و حُسن التفاوض الخطابي:</u>

و تقوم فكرة الحجاج (التفاوض) على البراهين و المنطق، وحُسن صياغة المعنى النفسى، أو ما يمكن أن نُطلق عليه: الصياغة النفسية للقصد؛ فالتخيُّل، ثم فعل الإنجاز، كلها أمور نفسية فى جوهرها، وبالتالى؛ فليس الحجاج فى النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، و الإصغاء إليها؛ ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابى، و التحامها مع الطرح المقدم؛ فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية و الاجتماعية فى الحسبان؛ فإن الحجاج يكون بلا غاية، و بلا تأثير .([3])

ولعل هذا المعنى هو ما قصده عبد القاهر الجرجانى فى تعبيره عن القصد بأنه المعنى النفسى، و مراد الضمائر، فقال: " فصل فى تحقيق القول فى البلاغة و الفصاحة و البيان و البراعة، و ما شاكل ذلك؛ مما يعتبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا و تكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض، و راموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم، ويكشفوا لهم ما فى ضمائر قلوبهم .([4]) وقد اشترط السكاكى لتمام القصد شرط الفصاحة، وجعله سببًا فى بلوغ المتكلم مراده، بعيدًا عن التعقيد و التنافر، وأن يجعل الطريق إلى المعنى ممهدًا، غير معقد، وغير المعقد أن يفتح صاحبه لفكرته الطريق و يمهده.([5])

فإذا شملت هيئة القصد تلك السمات؛ توفرت شروط الإقناع، بما يُفضى إلى اقتناع المتلقى بالقصد و قبوله؛ بل و يتخذ مواقف سلوكيَّة واضحة، تدل على ذلك، أو تبدو عليه أمارات القبول الضمنىِّ . يقول ابن خلدون: " فالقصدية تتحقق في الكلام في تركيب بوصفه كلًا لا يتجرأ في المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبعه الكلام علي مقتضي الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع، وهو معني البلاغة " .([6])

والتركيب المفاوض هو الذى يوفر هيئة شكلية تحمل مضمونًا قضويًّا حسن الدلالة، مراعيًا حال المتلقى، من خلال انتخاب عناصر لغوية دقيقة وناجحة فى التعبير عن القصد، مع إعطاء المتلقى اقتناعًا قائمًا على أبعاد نفسية، و هذا ما نراه فى تعليقه على قوله – تعالي: " قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمَّا يدخلِ الإيمان فى قلوبكم " . ([7])

يقول الزمخشري فى هذا الصدد: " فإن قلت: ما وجه قوله – تعالي: " قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا " . و الذى يقتضيه نظم الكلام أن يُقال: قل: لا تقولوا: آمنا . و لكن قولوا: أسلمنا . أو قل: لم تؤمنوا و لكن أسلمتم ؟ . قلتُ: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولًا، و دفع ما انتحلوه، فقيل: قل: لم

---

[1] سورة القمر: ١٣

[2] ومثله في الجمال، قوله – تعالي: " و فجرنا الأرض عيونًا . فالتقى الماء على أمر قد قُدر " . سورة القمر:، يقول الزمخشري: وقوله: (و فجرنا الأرض عيونًا) أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض . سورة القمر: ١٢ . انظر: الكشَّاف ٤: ٣٧٢

([3]) مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره فى البلاغة المعاصرة، م عالم الفكر، م ٢٨، ع ٣، يناير/ مارس، القاهرة، ٢٠٠٠م: ٦٨

([4]) دلائل الإعجاز: ٣٥

([5]) مفتاح العلوم، للسكاكى، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ\ ١٩٨٧م .: .: ١٩٦

([6]) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د: على عبد الواحد وافى، طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.: ٣: ٢٧٨

[7] سورة الحجرات: ١٤

تؤمنوا، و روعي فى هذا النوع من التكذيب أدبٌ حسنٌ، لم يُصرَّح بلفظه؛ فلم يقل: كذبتم، ووضع (لم تؤمنوا) الذى هو نفى ما ادَّعوا إثباته موضعه، ثم نبَّه على ما فعل، من وضعه موضع كذبتم فى قوله – فى صفة المخلصين – " أولئك هم الصادقون " . ([1]) تعريضًا بأن هؤلاء هم الكاذبون، و رُبَّ تعريضٍ لا يقاومه التصريح، و استغنى بالجملة التى هى (لم تؤمنوا) عن أن يُقال: لا تقولوا: أمنا . لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدَّاه النهى عن القول بالإيمان؛ ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى .

و لم يقل: و لكن أسلمتم؛ ليكون خارجًا مخرج الزعم و الدعوى، كما كان قولهم: آمنا . كذلك، و لو قيل: و لكن أسلمتم؛ لكان خروجه فى معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، و هو غير معتدٍّ به . فإن قلت: قوله: " و لما يدخل الإيمان فى قلوبكم " . بعد قوله: " قل لم تؤمنوا " . يُشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ . قلتُ: ليس كذلك . فإن فائدة قوله: لم تؤمنوا . هو تكذيبُ دعواهم، و قوله: و لما يدخل الإيمان فى قلوبكم . توقيتٌ لما أُمروا به أن يقولوه؛ كأنه قيل لهم: و لكن قولوا أسلمنا؛ حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلامٌ واقع موقع الحال من الضمير فى قولوا . و ما فى (لمَّا) من معنى التوقع دالٌ على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد . ([2])

و من الغرابة فى التراكيب – فى غير باب الحذف – أن تفقد الأداة اللغوية ماهيتها، بأن تأتى على غير ما أُشتهرت به، فى أعرافها اللغوية، و قد جاء على هذا البناء قوله – تعالي: " و اعلموا أن فيكم رسولَ الله لو يُطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم و لكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان .. " . ([3])

يقول الزمخشري: " فإن قلتَ: كيف موقع (لكن) و شريطتها مفقودةٌ؛ من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا و إثباتًا ؟ . قلتُ: هى مفقودة من حيث اللفظ حاصلةٌ من حيث المعنى؛ لأن الذين حُبِّب إليهم الإيمان قد غايرت صفاتهم صفة المتقدم ذكرهم، فوقعت لكن فى حلق موقعها من الاستدراك . ([4])

و من معززات القبول ما أطلقت عليه كاترين كيربرات أوكيونى – Catherine Kerbrate Orecchioni مبدأ التفاوض، بوصفه ضابطًا لأطراف الحوار وعرض مقاصدهم و قبولها؛ " و هو لا يتشكل إلَّا إذا أسهم فيه كل طرف بقدر، لأن الخطاب إنتاج مشترك، وعمل جماعى، فينبغى للمؤلف أن يُراعى حال الكلمات التى يستعملها، فى أثناء تفاعله مع متلقى نصه، بل و يراعى أن لكل فرد تاريخًا خاصًا به، و تجاربًا فى الحياة؛ لا تطابق تجارب غيره، كما أن معجمه لا يُفترض أن يطابق معجم الآخرين؛ بل إن عليه إزاحة ما تتسم به معانى الألفاظ من الضبابية و الاتساع .([5])

ويؤكد فان دايك الدور الحاسم لعلم النفس الاجتماعى، وبحث الاتصال الجماهيرى فى تأثيرات النصوص، داخل الاتصال الجماهيرى، وعلى آراء المتلقين وطرق سلوكهم؛ فى حين يحلل علم الاجتماع نصوصًا من التفاعل الاجتماعى، وبخاصة الأحاديث اليومية و الأشكال النصية و الاتصالية، فى مواقف و مؤسسات مختلفة .([6]) ومن الحق التأكيد على سبق الزمخشري لما تنادى به الدراسات اللسانية الحديثة من تعظيم لدور علم النفس الاجتماعي فى تجليه المُراد من الكلمات والتراكيب والنصوص، ففى تفسيره إحاطة بما يعترك فى نفس المتلقى من مشاعر، تلك المشاعر التى تعد لغة نفسية تسبق لغة الألفاظ، لابد لها من أن تترك دليلًا عليها، لفظيًا لا نفسيًا فحسب . جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي: " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات " . ([7]) أن الوراء: هو الجهة التى يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام، و من لابتداء الغاية، و أن المناداة نشأت من ذلك المكان، فإن قلتَ: أفرقٌ بين الكلامين: بين ما تثبت فيه و ما تسقط عنه ؟ .

---

[1] سورة الحشر: ٨

[2] الكشاف ٤: ٣٢٤

[3] سورة الحجرات: ٧

[4] الكشاف ٤: ٣١٢

([5]) الخطاب التفاعلى، تأليف: ك، ك، أوركيونى، عرض: حاتم عبيد، مجلة فصول، ع ٧٧: ٢٩٦ – ٢٩٧

([6]) علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) تأليف: تون .أ . فان دايك، ترجمة د: سعيد حسن بحيرى، ط ٢، دار القاهرة، مصر، القاهرة، ٢٠٠٥ م: ١٠

[7] سورة الحجرات: ٤

قلت: الفرق بينهما أن المنادِى و المنادَى فى أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، و فى الثانى لا يجوز؛ لأن الوراء تصير – بدخول من – مبتدأ الغاية، و لا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ و منتهى لفعل واحد، و الذى يقول: ناداني فلانٌ من وراء الدار . لا يُريد وجه الدار ولا دبرها، و لكن أىّ قطرٍ من أقطارها الظاهرة، كان مُطلقًا بغير تعيين و اختصاص، ... و إنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرِّ و الخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض، من غير قصدٍ إلى جهة دون جهة . ([1])

- <u>الإعجاز فى التركيب:</u>

يكون ذلك بأن يعرض دلالة يحيط فيها الحدث بالزمن الذى يقصده، وأن يملأ أفق انتظار المتلقى بأن يسوق له المعنى، من دون نقصان، ولا حاجة إلى تعلق الذهن بمفردات المعنى، كما فى قوله – تعالي: " و قل إنى أنا النذير المبين " . ([2]) فقد جعل هذا التركيب المتوقع بمنزلة الواقع، و هو من الإعجاز؛ لأنه إخبارٌ بما سيكون و قد كان .([3]) ومن ذلك أن يستخدم اللفظة الدالة على الحدث و زمنه بكل دقة، كما فى قوله – تعالي: " ألم ترَ أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فتُصبحُ الأرض مخضرَّةً إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ " . ([4]) يقول الزمخشري: " فإن قلت: هلَّا قيل فأصبحت ؟ - ليحدث تناسبٌ بين الصيغ الفعلية فى صيغتها و زمنها و دلالتها، (أنزل و أصبحت - و لم صُرف إلى لفظ المضارع ؟. (فتصبح) . قلتُ: للنكتة فيه، و هى إفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمانٍ، كما تقول: أنعم علىَّ فلانٌ عتم كذا؛ فأروحُ و أغدو شاكرًا له .

ولو قلت: فرُحتُ و غدوتُ لم يقع ذلك الموقع؛ فإن قلت: فماله رُفع ولم يُنصب جوابًا للاستفهام ؟ . قلتُ: لو نُصب لأعطى ما هو عكس الغرض،لأن معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار؛ مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم ترَ أنى أنعمت عليك فتشكر ؟ . إن نصبتُه فأنت نافٍ لشكره شاكٍ تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبتٌ للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتَّسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله .([5])

ومن الإعجاز التركيبيِّ أن يأتى الفعل المضارع المنهى عنه، ليشمل بنهيه كل واحد من المشتركين فيه، و إن بدا ظاهره غير ذلك، و قد أشار الزمخشري إلى ذلك فى معرض تفسيره لقوله – تعالي: " فلا يُنَازعُنَّك فى الأمر " . ([6]) فيقول: هو نهى لرسول الله – صلى الله عليه و سلم – أى: لا تلتفت إلى إلى قولهم، و لا تمكنهم من أن ينازعوك، وهو زجرٌ لهم عن التعرض لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمنازعة فى الدين، كما تقول: لا يُضاربنَّك فلانٌ . أى: لا تُضاربه، وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون إلَّا بين اثنين . ([7])

- <u>التركيب الحسن و الغموض الفنِّى:</u>

والغموض المقصود - هنا - ليس غموضًا مقصودًا به التعقيد و التقعر، حيث إنه أمرٌ نسبىٌّ، يتعلق بمستوى المتلقى؛ بوصفه معونةَ إمتاع؛ حين يجعل النص أكثر ممانعة، و أكثر مماطلة للمعنى، أو للمعاني المحتملة و الممكنة، و هو يسهم فى جعل النص أكثر بريقًا و إثارة؛ مما يدفع المتلقى للتمتع، و يبذل جهدًا فى محاولة الكشف عن السر الكامن فيه، و الذى يمنحه جماله؛ مما يعوِّده على ألَّا يقنع بالقريب و الظاهر، و يُحفزه على اكتشاف ما تحاول الألفاظ و التراكيب أن تحجبه . ([8]) والغموض: هو هو الذى يلوِّن النص بالرؤي و الأخيلة، و يمنحه أصداء لا متناهية، و كأنى بالمؤلِّف – فى تصرف الحذف مثلًا – يقول: كم أهب ؟ . و كم أمنع ؟ . و كم أُبيِّن ؟ . و أين أسكت؟ . و أين أتكلم ؟ . إذ ليس

---

[1] الكشاف ٤: ٣٠٨
[2] سورة الحجر: ٨٩
[3] الكشاف ٢: ٤٢٤
[4] سورة الحج: ٦٣
[5] انظر: الكشاف ٣: ١٤٩ – ١٥٠ (بتصرف) .
[6] سورة الحج: ٦٧
[7] الكشاف ٣: ١٥٠
[8] انظر: النص و الممانعة (مقاربات نقدية فى الأدب و الإبداع) د: محمد راتب الحلاق، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م، نسخة { pdf }: ٥٥

نصًّا ممتعًا ما يمكن الإحاطة به بقراءة سريعة؛ كتلك التي نمارسها فى أثناء السفر، لتزجية الوقت، كما أنه ليس من الجمال فى شىء من يهبك ما لديه من الجمال بشكل مجانيٍّ، اعتباطيٍّ، ساذجٍ .([1])

ويستحسن الزمخشري حدوث نسبة من الغموض الدلالي فى التركيب النحوي، طالما كان هذا الغموض مقبولًا، ومحققًا ميزة الاتساع واللذة . جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي: " يوم لا يُغني مولًى عن مولًى شيئًا ولا هم يُنصرون ".([2]) فقد ذهب الزمخشري إلى أن غموض الدلالة، فى هذا الموضع، قد أسهم فى حدوث فيوض دلالي مقبول، تمثل فى ضمير الغيبة المنفصل المجموع، الذى يُشير إلى الموالى؛ لأنهم فى المعني كثيرٌ، لتناول اللفظ على الإبهام و الشياع .([3]) يتضح من كلام الزمخشري أن أن غموض الدلالة عملٌ لغويٌّ مقصودٌ، ليجعل المعاني كلُّها مطلوبة مُرادَةً، أى: لا يُغنى أىُّ مولًى كان من قرابة أو غيرها عن أىِّ مولى كان شيئًا، لذا فقد أفاد هذا الغموض إيجازًا فى اللفظ، و اتِّساعًا فى المعني . ([4])

- <u>التركيب القوى:</u>

و هو: ذلك التركيب الذى تُحافظ عناصره اللغوية؛ هيئةً و ترتيبًا و انتخابًا على الدلالة و سلامتها، و على إقامة جسر من التفاعل بين صاحب التركيب و مُتلقيه، و يكون ناجحًا في ربط الصوت أو الشكل بالصورة أو المعنى، أو ما يُسميه المحدثون: التداخل بين الدال و المدلول . و يُعرف الزمخشري مثل هذا التركيب بقوله: " انظر إلى بلاغة هذا الكلام، و حُسن نظمه، و مكانة إضماده - أى: تماسكه و جمعه و لم شعثه – و رصانة تفسيره، و أخذ بعضه بحُجزة بعض، كأنما أُفرغ إفراغًا واحدًا، و لأمر ما أعجز القوىَّ، و أخرس الشقاشق، و نحو هذا المصدرُ إذا جاء عُقيب كلام جاء كالشاهد بصحته و المنادى على سداده؛ و أنه ما كان ينبغي أن يكون إلَّا كما قد كان، ألَا ترى إلى قوله: (صنع الله) . ([5]) و صبغة الله، ووعدَ الله، و فطرة الله، بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: " الذى أتقن كلَّ شىءٍ " . ([6])

بدا ذلك في تفريق الزمخشري بين نمطين من التراكيب النحوية، وهما: قراءة الجماعة: " أصلُها ثابتٌ و فرعُها في السماء " . ([7]) و قراءة أنس بن مالك: " كشجرةٍ طيبةٍ ثابتٌ أصلُها " . يقول: " فإن قلتَ: أى فرق بين القراءتين ؟ . قلتُ: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس أُجريت الصفة على الشجرة، و إذا قلتَ: مررت برجلٍ أبوه قائمٌ، فهو أقوى معنًى من قولك: مررتُ برجلٍ قائمٍ أبوه . لأن المخبَرَ عنه؛ إنما هو الأبُ لا الرجلُ . ([8])

ومن قوة التركيب النحوي عند الزمخشري أن يُوصف بالجمال القائم على صدمة التلقى، و تنشيط الذهن، و يقظة النفس، و من ذلك تلك التراكيب التى تقوم على الثنائيات الضدية، على مستوى الأصوات، و الهيئة، والمعنى و نمط التلقى، ما تعظيم دور الالتفات، كما قال: تعالي: " و رحمة منا " . ([9]) و قال: " ذكرُ رحمت ربِّك عبده زكريا " . ([10]) يقول الزمخشري: " خالف - عزَّ و علا – بين هذه الأشياء؛ حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس واحد، و لا جهارة و لا حدة، و لا رخاوة، و لا فصاحة، و لا لُكنة، و لا نظم، و لا أسلوب، و لا غير ذلك من صفات النطق و أحواله، و كذلك الصور و تخطيطها، و الألوان و تنويعها .([11])

---

[1] انظر: النص و الممانعة (مقاربات نقدية فى الأدب و الإبداع): ٥٥

[2] سورة الدخان: ٤١

[3] الكشاف ٤: ٢٤٥

[4] انظر: الدراسات النحوية و اللغوية عند الزمخشري، للدكتور: فاصل صالح السامرائي، (د . ط) مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م: ٥٠ و ما بعدها

[5] سورة النمل: ٨٨

[6] سورة النمل: ٨٨

[7] سورة إبراهيم: ٢٤

[8] الكشَّاف ٢: ٣٩٤

[9] سورة مريم: ٢١

[10] سورة مريم: ٢

[11] انظر: الكشاف ٣: ٤٢٠ (بتصرف) .

- **دور السياق في التحديد الدلالي للتركيب النحوي:**

ليس المقصود بالسياق عند الزمخشري ذلك الكيان الجامد، إنما هو حالة متحركة، على مستوى الذهنية، و الحس، و النفس، و الإطار السوسيوثقافي ([1])، و البعدين التاريخى و الجغرافي . ([2]) لذا فقد عُنى فيرث بالسياق عناية فائقة، ذلك الإطار الذى يتحدد من خلال المواقف المختلفة، حيث يتغير المعني للكلمة تبعًا للسياقات التى ترد فيها، فالكلمة – عند فيرث – لا معنى لها مطلقًا خارج سياقها، و هى كلمةٌ جديدة فى كل سياق تقع فيه . ([3])

حيث أصبحت اللغة وفقًا لنظرية فيرث مجموعة من الدلالات المرتبطة بسياق خطابي ما، و لا تؤدى اللغة تلك الدلالات اكتفاءً بالعمليات الذهنية، لأن الوظيفة الدلالية لا تتشكل إلّا فى موقف فعلى معين، و هذا ما يُسميه المحدثون: علم اللغة السياقي أو الاجتماعي . و قد وصف أستاذنا الدكتور تمام حسان مقولة العرب: لكل مقام مقال بأنها قفزة من قفزات الفكر، و هذا العبارة تؤكد أن استخراج المعنى من المقال فحسب؛ لابد أن يشتمل على إغفالٍ معيب لأهم عنصر من عناصر المعنى، و هو المقام، أو الظرف الذى حدث فيه المقال .([4])

ولعل سيبويه من أكثر النحاة عناية بالمقام و معطياته، و اعتدادًا به في معالجته لكثير من التراكيب، فعلى ضوء المقام يحسن التركيب و يقبح عند سيبويه . ([5]) وقد احتفي الزمخشري بأبعاد المقام، و أدرك دوره الحاسم في توضيح الدلالة العميقة من خلال سطح التركيب، فنراه يقدِّم المقام قبل أن يذكر توجيهه للتركيب النحوي، يقول في قوله – تعالي: " فعززنا بثالث " . ([6]): " فإن قلتَ: لمَ تُرك ذكرُ المفعول به ؟ . قلتُ: لأن الغرض ذكر المعزَّز به، و هو شمعون، و ما لطف فيه من التدبير حتى عزَّ الحقُّ و ذلَّ الباطلُ، و إن كان الكلام منصبًّا إلَى غرض من الأغراض جُعل سياقه له، و توجهه إليه؛ و كأن ما سواه مرفوض مطرح، و نظيره قولك: حكم السلطانُ اليوم بالحق . الغرض المسوق إليه قولك: بالحق، فلذلك رفضت ذكر المحكوم له و المحكوم عليه . ([7])

وإذا كانت اللسانيات الحديثة قد جعلت من بُعد المقام أمرًا مهمًّا في معالجة التراكيب و تفسيرها، و أن إغفال هذا البعد يؤدِّي إلى استشكالها، سواء كان المقام مقام إخبارٍ أو استفهام، أو غير ذلك؛ فقد احتفي الزمخشري بهذا البُعد؛ حين حمل رفع لفظ الجلالة (الله) علىٍ أن المقام هو ما عظَّم هذا الحمل في قوله – تعالي: " كذلك يوحِى إليك و إلى الذين من قبلك اللهُ العزيزُ الحكيم ". ([8])

فيُبرز الزمخشري دور المقام في تفسير هذا التركيب، و كأن المقام مقام تحاور بين سائل و مجيب، و يكون لفظ الجلالة جوابًا لمن يسأل: من المُوحِى ؟ . و يكون الجواب: اللهُ العزيزُ الحكيمُ، يقول الزمخشري: " و قُرئ: يوحَى إليك . على البناء للمفعول؛ فإن قلتَ: فما رافع اسم الله ؟ . قلت: ما دلَّ عليه يوحَى، كأن قائلًا قال: من الموحى ؟ . فقيل: اللهُ ". ([9])

---

[1] انظر: بناء الجملة الغربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د . ط) دار غريب، القاهرة / ٢٠٠٣ م: ٢٣٧، و ما أسماه: عوارض بناء الجملة . و انظر: الجملة العربية و المعنى، د: فضل صالح السامرائي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م: ٨٦ و ما بعدها .

[2] انظر: البيان في روائع القرآن، د: تمام حسان، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م: ١: ١٧٣

[3] انظر: مفهوم اللغة عند البنيويين، د: إحسان عبد القدوس، صحيفة دار العلوم، العدد (٣٦) رجب ١٤٣١هـ يوليه ٢٠١٠م، الإصدار الرابع، السنة الثامنة عشر (جماعة دار العلوم): ١٥٥ - ١٥٦

[4] اللغة العربية معناها و مبناها، د: تمام حسان، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٢م: ٢٠

[5] الكتاب ١: ٥٤

[6] سورة يس: ١٤

[7] الكشَّاف ٤: ٩

[8] سورة الشوري: ٣

[9] الكشَّاف ٤: ١٨٦

لذا فقد اختار وجه النصب على الرفع في المستثنى المتقدم: تعظيمًا للدور الاجتماعي فى تشكيل عناصر التراكيب النحوية، فذكر أن ما قُدِّم من المستثنى، كقولك: ما جاءنى إلَّا أخوك أحدٌ . واجب النصب، مع أنه قد حكى جواز رفعه، ومنه قول الشاعر: {من بحر الطويل }

فإنّهم يرجون منه شفاعة إذا لم يكن إلّا النبيون شافعُ .([1])

بل إنه يستخدم السياق في تفسير التراكيب، وهو ذاته ما تنادى به اللسانيات الحديثة، من أنه لا دلالة للألفاظ لا للتراكيب، بعيدًا عن سياقاتها المحدِّدة للمعني، والمقرِّبة للقصد، كما يقولون: أعطنى الكلمة في سياقها أُفدْك عن معناها . إذ المعني رهين السياق؛ أو شواهد الأحوال عند الإمام الغزالى .

ويصرِّح الزمخشري بأن دراسة التراكيب تستوجب اعتماد مقامها حال تفسيرها، فيقول – في قوله – تعالي: " وأولئك هم المفلحون ".([2]) ومعني التعريف في قوله: المفلحون . الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة . و المفلح: الفائز بالبُغية، كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر، ولم تُستغلق عليه، والتركيب عنده دالٌ على معني الشقِّ و الفتح ".([3])

وهو – بذلك – يشير إلى أن الأسرار الدلالية للألفاظ لا تتمثل في المفردات المنعزلة عن مثيلاتها من متممات المعاني؛ في سياقاتها الخاصة، كما أن دراسة التركيب – عنده – تستكشف الفروق الدقيقة للمعاني، فلا يمكن قيام جملة بمفردها بحمل غرض عام، أو قصد قصده مؤلف النص؛ إلا بارتباطها بسوابق أو لواحق شكلية أو دلالية، مع ارتباطها بسياق؛ يُعين على تفسيرها بصورة مقبولة،

يؤكِّد موكاروفسكى أن النص - بوصفه عملًا أدبيًا - لا يكتمل إلَّا عندما " يستقبل المتلقِّي المعنى الكلِّى، الذى يتحقق بتتابع العلامات؛ حيث ترتبط كل علامة جزئية، بما يسبقها من علامات؛ لتؤثر فيما بعدها، لأن كل مكون من مكونات العمل؛ يحمل معانٍ جزئيةً .([4])

وقد تحدَّث الزمخشري عن السياق غير اللغوى، و دوره فى تحديد المقصود من التركيب النحوى، و فى فهم المعنى المُراد منه، حين تعرض لتفسير قوله – تعالي: " فأقبلت امرأته فى صرَّةٍ و صكَّت وجهها و قالت عجوزٌ عقيمٌ " . ([5])

يبدو من كلام الزمخشري تركيزه على الأثر الحاسم للسياق غير اللغوي، و هو قوله – تعالي: " و صكَّت وجهها " . فى تجلية المعنى المُراد فى صورته الدقيقة، حيث يورد معنيين لكلمة (صكَّت) اعتمادًا على السياق، حيث تُشير الكلمة إلى اللطم ببسط اليد على الوجه، و إلى الضرب بأطراف الأصابع على جبهتها فعل المتعجب، و لو جاء الخطاب القرآني حاكيًا عنها: " فأقبلت امرأته فى صرَّةٍ ... و قالت عجوزٌ عقيمٌ".([6]) من غير أن يذكر صكَّ الوجه، لأعلمنا – بذلك – أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال، فقال: (و صكَّت وجهها) . عُلم – بذلك – قوةُ إنكارها، و تعاظم الصورة

---

[1] البيت: لحسان بن ثابت، فى ديوانه، و الشاهد فيه: أن الشاعر قد جعل كلمة (شافع) متبوعًا، و كلمة (النبيُّون) تابعًا، فيكون المستثنى بدلًا من المستثنى منه، في إشارة إلى قول سيبويه: حدثنى يونس أن قومًا يوثق بعربيتهم يقولون: ما لى إلَّا أبوك ناصرٌ؛ فيجعلون ناصرًا بدلًا . انظر: ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: سيد حنفى حسنين، (د . ط)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م: ٢٤١، و شرح التصريح، ١: ٣٥٥، وهمع الهوامع ١: ٢٢٥، وانظر: المفصل: ١٩٥، و انظر: شرح التسهيل، ٢: ٢١١

[2] سورة البقرة: ٥

[3] الكشَّاف ٢: ٥٩

[4] التحليل اللغوي للنصوص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية و المناهج، ل: كلاوس برينكر، ترجمة د: سعيد حسن البحيرى، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٤٢٨ هـ\ ٢٠٠٥ م .: ٧٤ – ٧٩، وانظر: اللغة المعيارية و اللغة الشعرية، تأليف يان موكاروفسكى، تقديم و ترجمة: ألفت كمال الروبى، مجلة عالم الفكر، ع ٣، المجلد: ٣٧ يناير / مارس، ٢٠٠٩م: ٤٠

[5] سورة الذاريات: ٢٩

[6] سورة الذاريات: ٢٩

لها . هذا مع أنك سامعٌ لحكاية الحال غير شاهد لها، و لو شاهدتها لكنت بها أعرف .. و ليست كلُّ حكايةٍ تُروي انا، و لا كلُّ خبرٍ يُنقل إلينا، يشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة به . ([1])

- التركيب النحوي و الانفتاح الدلالي:

لا يقيِّد الزمخشري الدلالة بعلم النحو فى إطلاقها، ويرفض أن يقوم المعنى على السلامة النحوية فحسب، أو على الهيئة التركيبية للعناصر اللغوية، فالقضية – عنده – تتمثل فى إمكانية التحرر من قيود النحو، لأن الهدف من دراسة التركيب النحوي هو البحث عمَّا وراء الصورة البصرية للتركيب، و الكشف عن أسرارها، ليستخرج منها معانى و أسرارًا و نكاتٍ بلاغية جديدة ومقبولة، بعيدًا عن القراءة الواحدة، لتركيب تختلف قراءته باختلاف مقامه و قارئه .

انظر إليه معلِّقًا على ترابط جملة بجملة، أو ما أسماه: تجاوب النظم ([2]) فى قوله – تعالي: " الذين يؤمنون بالغيب " . و" أولئك على هدى من ربهم " .([3]) بأن الجملة الأولى مبتدأ، والثانية فى محل رفع خبرًا لهذا المبتدأ، و إذا كان علم الإعراب يُبين لنا هذا، فنراه يلج أعماق التركيب، ليستخرج ما دق فيه، يقول: " فإن قلت: هل يجوز أن يجرى الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء، وأولئك خبره، قلتُ: نعم . على أن يُجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضًا بأهل الكتاب . ([4]) وهذا وجه من التخريجات النحوية، التي تُعطى التركيب معنى جديدًا يُفهم من عرضه، ويكون فيه غمزٌ لأهل الكتاب . ([5])

- التركيب النحوي و التماسك الشكلي و الدلالي:

تجدر الإشارة إلى أنه من شرائط صحة التركيب النحوي وحسنه وقوته، و إعجازه، وقبوله أن يكون متماسكًا على مستوى الشكل و الدلالة، و يُقصد بالتماسك – هنا – شدة ارتباط العناصر اللغوية المشكِّلة للتركيب، و قدرتها على نقل المتلقِّي من تمام الشكل إلى تمام الدلالة، بصورة تمنع الخلط أو الاختلال أو التغيير .

من أجل ذلك لم تقم الطرافة في المعنى، عند عبد القاهر الجرجانى، على " مجرد ضم كلمة إلى أخرى؛ كيفما جاء و اتفق؛ وإنما تقوم على التعلق، و مراعاة حال الكلام، بعضه مع بعض، من خلال تناسق الدلالة، و تلاقى المعاني، على الوجه الذى يقتضيه العقل، و تمتد الطرافة لتشمل حركة الصياغة؛ في كل اتجاهاتها كالنسيج الدقيق، الذى لابد في إدراك دقته من مراقبة خيوطه؛ جيئة و ذهابًا، طولا و عرضًا، و بم يبدأ، و بم يثنى، و بم يثلِّث، من خلال الحساب الدقيق .([6])

فمن المعلوم في الدرس اللسانى الحديث أن المؤلف يجيء بالتكرير ليجعله سببًا في ترابط النص، و التحام أجزائه بعضها البعض، كأن التركيب كتلة شكلية دلالية واحدة ([7])، بيد أن الزمخشري قد توسع توسع في تلك النظرة فلم يقصر تصرف التكرير على مجرد تحقق الترابط بين أجزاء الكلام، فجعله سببًا للتخصيص و التوكيد .

لأن فى التكرير تقريرًا للمعاني فى الأنفس، و تثبيتًا لها فى الصدور؛ ألا ترى أن لا طريق إلى تحفُّظ العلوم إلَّا ترديد ما يُراد تحفُظُه منها ؟ . و كلما زاد ترديدُه كان أمكنَ له فى القلب، و أرسخ في الفهم، و أثبت للذكر، و أبعدَ عن النسيان، و لأن هذه القصص – أى القصص القرآني – طُرقت بها آذانٌ وُقْرٌ

---

[1] انظر: الكشاف ٤: ٣٤٦ – ٣٤٧، و انظر: الخصائص ١: ٢٤٥ – ٢٤٦، و انظر:علم الدلالة المقارن، د: حازم على كمال الدين، (د . ط)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م: ٢٤٨ - ٢٤٩

[2] وقد عبَّر الزمخشري عن ذلك بتلاحق الأشكال و النظائر، وبذلك تتلاحظ المعاني و يتجاوب النظم . انظر: الكشاف ١: ٧٤

[3] سورة البقرة: ٣، ٥

[4] انظر: الكشاف ١: ٥٧

[5] انظر: البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري و أثرها فى الدراسات البلاغية، د: محمد حسنين أبو موسي، (د . ط) دار الفكر العربي، القاهرة، (د . ت): ١٨٩

[6] دلائل الإعجاز: ٨١، ٩٣، ٢٥٢

[7] انظر: مفهوم التماسك و أهميته في الدراسات النصية، جمعان عبد الكريم، مجلة علامات في النقد، مج ١٦ ج ٦١، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ / مايو ٢٠٠٧م: ٤٧ و ما بعدها .

عن الإنصات للحقِّ، و قُلُوبٌ غُلْفٌ عن تدبُّرِه؛ فكُوثرت بالوعظ، و التذكير، و رُوجعت بالترديد و التكرير، لعلَّ ذلك يفتحُ أُذُنًا، أو يفتق ذهنًا، أو يصْقُلُ عقلًا طال عهده بالصقل، أو يجلوَ فهمًا قد غطَّى عليه تراكمُ الصدأ " . ([1])

جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " أولئك على هدًى من ربِّهم و أولئك هم المفلحون " . ([2]) يقول: " و (أولئك على هدى من ربهم) الجملة في محل الرفع إن كان (الذين يؤمنون بالغيب) مبتدأ، و إلَّا فلا محل لها، و نظم الكلام على أنك إن نويت الابتداء بـ: (الذين يؤمنون بالغيب) فقد ذهبت مذهب الاستئناف .. و اعلم أن هذا النوع من الاستئناف يجيء – تارة – بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث .

كقولك: قد أحسنت إلى زيدٍ . زيدٌ حقيقٌ بالإحسان، و تارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنتُ إلى زيدٍ . صديقُك القديمُ أهلٌ لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحينَ و أبلغَ؛ لانطوائها على بيان الموجب و تلخيصه؛ فإن قلتَ: هل يجوز أن يجرى الموصول الأول على المتقين، و أن يرتفع الثاني على الابتداء، و أولئك خبره ؟ قلتُ: نعم . على أن يُجعَلَ اختصاصهم بالهدى و الفلاح، تعريضًا بأهل الكتاب . ([3])

ومما أضافه الزمخشري هو مجاوزته الحديث عن اللفظة المفردة، إلى الإطالة في الحديث عن تعلق العبارات بعضها ببعض، وأن رابطها في توخيها معانى النحو وأصوله؛ فنراه يقول: " و الذى هو أرسخ في البلاغة أن يُضرب عن هذه الحال، يقصد الحال النحوية صفحًا؛ وأن يُقال: إن قوله تعالى: (ألم) جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و (ذلك الكتاب) جملة ثانية، و (لا ريب فيه) ثالثة، و (هدى للمتقين) رابعة . و قد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، و موجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا؛ من غير حرف نسق، و ذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى، معتنقة لها، و هلم جرًّا إلى الثالثة و الرابعة " .([4])

والحق أن في كلام الزمخشري سبقًا لما تنادى به الدراسات اللسانية الحديثة، و المدارس الوصفية، من التحول من دراسة الجمل إلى دراسة النصوص؛ حيث نراه ينزع - في تفسيره - إلى الحديث عمَّا يسمى: التماسك النصى، و الذى يضم رافدين، هما: السبك و الحبك، حيث يختص السبك بالألفاظ؛ في حين يختص الحبك بالدلالات؛ فنرى الزمخشري مُصرًا على الحديث عن التناسق و النظم، و يطمئن إلى تفسير التركيب في هيئته الأسلوبية، لا على مستوى الألفاظ المفردة أو الجمل المنعزلة عن سياقاتها .

فقد أكَّد - في تفسيره للآيات السابقة - مبدأ تآخى الدلالات، فكل جملة عنده لها علاقة بسابقتها و لاحقتها، فأحدهما تؤكِّد الأخرى، و هذه تأخذ بعنق تلك، و تلك أسس بناء التركيب الدلالي عنده . و بذلك أظهر الزمخشري ما بين العبارات من تناسق و تلاحم؛ لما بينهما من شدة الاتصال، لذا فقد تتداخل الجمل، و تقوم بينها روابط ظاهرة ، و أخرى خفية، فتتعالق كل جملة بصاحبتها .

حيث ذكر بعضًا من روابط الجمل في قوله – تعالي: " فالتقطه آلُ فرعونَ ليكون لهم عدوًّا و حزَنًا . إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين . و قالت امرأت فرعون قرَّةُ عين لى و لك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا . و هم لا يشعرون ".([5])

يقول الزمخشري: " فإن قلتَ: و هم لا يشعرون . حال . فما ذو حالها ؟ قلتُ: ذو حال آل فرعون، و تقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا و حزنًا، و قالت امرأة فرعون كذا، و هم لا يشعرون أنهم على خطإٍ عظيم في التقاطه، و رجاء النفع منه و تبنِّيه، و قوله: (فرعون) . جملة اعتراضية

---

[1] انظر: الكشاف ٣: ٢٩٥

[2] سورة البقرة: ٥

[3] الكشَّاف ١: ٥٧

[4] انظر: الكشَّاف ١: ٩٢

[5] سورة القصص: الآيتان: ٨ – ٩

واقعة بين المعطوف و المعطوف عليه؛ مؤكِّدة لمعنى خطئهم، و ما أحسنَ نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم ".([1])

ويستخدم الزمخشري مصطلح النظم بديلًا لمصطلح التركيب، و يجعله مما تُسهم علاقات جُمله في الإبانة عن معانيه السطحية و العميقة؛ التي قد تكون وراء الأشكال اللغوية، و ما تشير إليه من فراغ نصِّىّ، و ممَّا تحمل دوالُه مدلولاتِه، بخلاف الكلام المبعثّر، الذى تفشل دوالُه في التعبير الصحيح عن مدلولاته؛ فيضيع القصد، و لا يعثر منه الذهن و لا الوجدان على معني تام، و لا على رسالة يُمكنه التفاعلُ معها . ([2])

فتقوم دراسة التركيب – عنده – على انتظام الدوال و المدلولات و استقامتها، و بعدها عن القبيح و المحال و الكذب – أي خداع الدوال لمدلولاتها – و أيضًا مقدرة الدال على توضيح المدلول، و الإشارة إليه عند حذفه، بصورة تكاد تكون يقينية أو على الأقل تقريبية، كما تقوم دراسة التركيب على تحديد القوالب الدلالية، على مستوى الجمل و الفقرات، و على وجود الترابط بينها، و كذلك على تحديد نسبة هذا الترابط؛ في إشارة منه إلى ما يسميه المحدثون: معيار التماسك النصِّى، و هو الذى يختص ببيان الربط و أدواته؛ على مستوى الدوال ومدلولاتها . ([3])

وقد كشف الزمخشري عن الأدوات التى يتحقق بها التماسك التركيبي، و ذلك حين أخضع التحليل النحوي لاكتشاف الدلالة المقصودة، من دون ضياع الغاية من الهيئة التركيبية، التى يفرضها علم النحو و الجمال التركيبي، يقول الزمخشري فى تفسير قوله – تعالي: " و إنْ يُقاتلوكم يُولُّوكم الأدبارَ ثُمَّ لا يُنصرون . " ([4])

يقول الزمخشريُّ: " فإن قلتَ: هلَّا جُزم المعطوف فى قوله: (ثُمَّ لا يُنصرون) .؟ قلتُ: لو جُزم لكان نفيُّ النصر مقيَّدًا بمقاتلتهم كتولية الأدبار، و حين رُفع كان نفى النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم و قصتهم التى أُخبركم عنها، و أُبشركم بها بعد التولية؛ أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصرُ و القوةُ، لا ينهضون بعدها بجناح، و لا يستقيم لهم أمرٌ، و كان كما أخبر من حال بنى قريظة و النضير، و بنى قينقاع، و يهود خيبر . فإن قلتَ: فما الذى عُطف عليه هذا الخبرُ ؟ . قلتُ: جملة الشرط و الجزاء، كأنه قيل: أخبرَكم أنهم إنْ يُقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا يُنصرون . ([5])

ومن الحق الإقرار بسبق الزمخشري فى تناول أدوات مختلفة و دلالية عميقة، مما يُحقق تماسكًا تركيبيًّا، حين يُحيل المتلقى إلى خارج النص، بوصفه نمطًا من أنماط الإحالة المقامية، إذ يتوقف فهم الوظيفة الدلالية للتركيب على المقام المحدد، و ذلك فى إشارة منه إلى حدوث تناسب منقطع النظير بين الشكل و الدلالة، أو يُمكن أن نسميه: التناسب المعنوي .

جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي: " قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدِّقًا لما بين يديه و هُدًى و بشرى للمؤمنين " . ([6]): " إن الضمير فى قوله: (نزَّله) . للقرآن، و نحو هذا الإضمار؛ ما لم يسبق ذكره؛ فيه فخامةٌ لشأن صاحبه، حين يُجعل لفرط شهرته، كأنه يدلُّ على نفسه، و يكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيءٍ من صفاته " . ([7])

فقرَّر أن اسم الإشارة يصلح أن يكون عنصرًا إحاليًّا، كما فى قوله – تعالي: " و كذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حقٌّ . ([8]) فاسم الإشارة (كذلك) فيه إحالة إلى خارج النص، أو إلى ما سبق من

---

[1] الكشَّاف ٣: ٣٥٠

[2] البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري: ١٦٠

[3] نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د: نهاد الموسي، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٧م: ٢٣١

[4] سورة آل عمران: ١١١

[5] الكشاف ١: ٣٦٧

[6] سورة البقرة: ٩٧

[7] الكشاف ١: ١٦٩

[8] سورة الكهف: ٢١

أحداث القصة، يشمل الإشارة إلى زمن النوم و زمن البعث، و إرسال مبعوثهم إلى المدينة، ليقضىَ لهم متاعهم، و شيوع أمرهم، و هجوم القوم على كهفهم . ([1])

- **تجديد الزمخشري في أبعاد التركيب النحوي:**

يبدو – في كثير من الأحيان – نزعة الزمخشري الاجتهادية، التي لا يقيِّد فيها نفسه برأى مجموعة أو فرد، بل تقوم تلك النزعة الاجتهادية على ما يعتقده صوابًا، و ما يوافق مذهبه الاعتزاليّ، سواء اتفق مع الجمهور أو اختلف، و لعل من المفيد الإشارة إلى أن تلك النزعة الاجتهادية أسهمت – بقدر كبير – في سدِّ فجوة الشذوذ، و الخلل، و الفساد الدلالي، في التراكيب النحوية .

و أجمل ما فيها هو ميلها إلى التبسيط و الوضوح، فتقلل تلك التقديرات النحوية، التي لا داعى لها أحيانًا، فهو يروم تماسك عناصر التركيب النحوي، بعيدًا عن تمزيقه، حين نسلط عليه الأبعاد النحوية المعيارية، من دون مراعاة لأفق التلقي و لا للاستعمال . لذا جاء توجيهه للتراكيب النحوية على ضوء من إحساسه بضفيرة العناصر اللغوية في سياقاتها . فقد أجاز تعلق الجار و المجرور بحروف المعاني، مثل حروف النفي، فقد جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " ما أنت بنعمة ربِّك بمجنون " . ([2]): فإن فإن قلت: بم يتعلق الباء في (بنعمة ربك) ؟ و ما محلُّه) ؟ . قلتُ: يتعلق بمجنون منفيًّا، كما يتعلق بعاقل مثبتًا، في قولك: أنت بنعمة الله عاقلٌ، مستويًا – في ذلك - الإثبات و النفي، استواءهما في قولك: ضربَ زيدٌ عمرًا، و ما ضربَ زيدٌ عَمْرًا؛ تُعمل الفعل مثبتًا و منفيًّا إعمالًا واحدًا، و محله النصب على الحال، كأنه قال: ما أنت بمجنون منعمًا عليك بذلك، و لم تمنع الباء أن يعمل (مجنونٌ) فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي . ([3])

والحق أن للزمخشري تميُّزًا في كثير من اجتهاداته، فهو يؤكد أن العوامل الداخلية على التركيب النحوي تفيد دلالة أخص، و أعمق، و كأن التركيب خاضع للقاعدة التي تقول: إن زيادة المباني يتبعها زيادةٌ في المعاني، فمن غير الشائع أن تكون (أمَّا) للتوكيد، فالمشهور أنها للتفصيل، إلَّا عند الزمخشري، الذى ذهب إلى أنها للتوكيد . فقد ذكر في قوله – تعالي: " فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم " .([4]): و(أما) حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يُجاب بالفاء، وفائدته – في الكلام – أن يُعطيه فضل توكيد . تقول: زيدٌ ذاهبٌ، فإذا قصدت توكيد ذاك، و أنه لا محالة ذاهبٌ، و أنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلتَ: أما زيدٌ فذاهبٌ، ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شىءً فزيدٌ ذاهبٌ . ([5]) وهذا تفسيرٌ مُدلٍ لفائدتين: بيان كونه توكيدًا، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدَّرتين به- و إن لم يقل: فالذين أمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون - إحماد عظيم لأمر المؤمنين . ([6])

ثم يأتي ابن هشام فيذكر أن التفصيل هو غالب أحوال (أمَّا)، و تأتى للشرط و التوكيد، و ساق أمثلة لكل معنى، ثم يعقب بقوله: و أما التوكيد فقل من ذكره، و لم أرَ من أحكم شرحه غير الزمخشري . ثم ينقل كلام الزمخشري كلمة كلمة، من دون زيادة و لا نقصان . ([7]) و يذكر الزمخشري أدوات للتوكيد، لا تأتى على الأكثر من المشهور من كلام العرب، مما يدل على غناه اللغوي، و استقصائه لنوادرها، و أن ذلك يمنح التراكيب سعة و فضل دلالة، جاء في المفصَّل – في باب التوكيد: " و أكتعون و أبتعون و أبصعون اتباعات لـــ: أجمعون . ([8]) قال الرضى: " والبغدادية جعلوا النهاية أبتع

---

[1] انظر: الكشَّاف ٢: ٥٢٥
[2] سورة القلم: ٢
[3] الكشَّاف ٤: ٤٩٨
[4] سورة البقرة: ٢٦
[5] انظر: الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ٣: ١٤٩ و و ما بعدها
[6] الكشَّاف ١: ١٢٢
[7] مغنى اللبيب: ٥٠
[8] المفصل: ٦

أبتع و أخواته، فقالوا: أجمع أكتع أبصع أبتع، و الزمخشري قدَّم أبتع على أبصع، و لا أدري ما صحته. ([1])

والعجيب في الرجل أنه يُصر على اختراق أعماق التراكيب، مُخرجًا أجمل ما تُشير إليه، غير عابئ بقاعدة و لا استعمال، إنما ذوقه قائده، فمن المعلوم أن لا مع التركيبين الاسمى و الفعلي موضوعة للنفي، و غالبًا ما تأتى للزيادة، و قليلًا ما تأتى قبل القسم، إلَّا أن الرجل قد ذهب بها مذهبًا جماليًا، يجعلها من صميم التركيب، و أن لها ارتباطًا وثيقًا بمضمون الجملة، فيذهب إلى أنها تأتى للتوكيد، إذا باشرت فعل القسم، و دخلت عليه . جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " لا أقسم بيوم القيامة".([2])

أن الزمخشري يُؤصِّلها - أولًا - في كلامهم، و أن نسق القرآن ليس بدعًا من أساليبهم، فيقول: " إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيضٌ في كلامهم و أشعارهم ([3])، و فائدتها: توكيد القسم، و لم يقُل بزياتها، لأنها لم تقع مزيدة إلَّا في وسط الكلام، لا في أوله، هذا في غالب أحاديثهم، أما دخولها على فعل القسم – في هذا الموضع – ففيه إعظام للاحق، و توكيد له، مع نفي سابق مقدر، و يشهد له السياق السابق . ([4])

- <u>تأثر التراكيب:</u>

لعل مما أضافه الزمخشري في دراساته النحوية للتراكيب، وجود نوع من التراكيب النحوية الموصوفة بالقوة، على مستوى الصياغة و الدلالة، فتؤثر فيما يتلوها من تراكيب، فيُحذف بعض عناصرها اللغوية، اعتمادًا على القوة الدلالية للتركيب الأقوى، جاء في الكشَّاف، في قوله – تعالي: " و نادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًا .. " . ([5])

فلننظر إلى تركيب أهل الجنة: " أن قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًا " . في مقابلة تركيب أهل النار: " فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًا .. " . نلاحظ أن التركيب الأول قد ذُكر فيه ضمير ناء الفاعلين مسندًا إلى فعله و فاعله، في حين غاب هذا الضمير في تركيب أهل النار، كما عبَّر الفعل (وعد) عن ذلك، و كأن ثمة نقصًا في التركيب الثاني .

يُبيِّن الزمخشري أن الحذف في التركيب الثاني جاء اعتمادًا على دلالة التركيب الأول، و لأجل التخفيف، إضافة إلى تعظيم حال المؤمنين بأن يذكر ربُّهم في سياقهم، يقول الزمخشري: " فإن قلت: هلَّا قيل: ما وعدكم ربُّكم كما قيل: ما وعدنا ربُّنا ؟ . قلتُ: حُذف ذلك تخفيفًا، لدلالة (وعدنا) عليه، و لقائل أن يقول: أُطلق ليتناول كلَّ ما وعد الله من البعث و الحساب و الثواب و العقاب، و سائر أحوال القيامة.([6])

- <u>تأثر التركيب النحوي بالأدوات المعلقة عن العمل:</u>

ذكر الزمخشري أن بعض الأدوات تُعلِّق عن العمل، فيبطل ظهور الأثر الإعرابي، من نصبٍ و غيره على التركيب النحوي، و ذلك لإفادة معنى أسلوبى، من مثل ما يُمكن أن نسميَه: التناوب فى العمل، أو التعدد فى الأساليب . و التعليق: هو إبطال العمل لفظًا لا معنى، و يكون بواحدة من الأدوات العشر، التي تعترض العامل و المعمول، و هى: لام الابتداء، و لام جواب القسم، و الاستفهام، و ما النافية، و لا، و إن النافيتان فى جواب القسم، و لعل، و لو الشرطية، و إنْ التي فى خبرها اللام، و كم الخبرية.([7])

---

[1] شرح الرضى على الكافية فى النحو، تصحيح و تعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريوس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .: ١: ٣٦٩

[2] سورة القيامة: ١

[3] مثل قول امرئ القيس:

لا و أبيك ابنة العامرى لا يدَّعى القوم أنى أفر .

[4] انظر: الكشَّاف ٤: ٥٦٢

[5] سورة الأعراف: ٤٤

[6] الكشَّاف ٢: ٢٠

[7] انظر: شرح شذور الذهب، لابن هشام الأنصاري (المتوفَّى ٧٦٢ هـ)، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، (د . ط) ط) دار الطلائع، القاهرة، و مكتبة الساعى، الرياض، ٢٠٠٤ م: ٣٧٧ - ٣٨٠

و قد لخَّص الزمخشري أحكام التعليق فى: حروف الابتداء، و الاستفهام، و النفى؛ كقولك: ظننتُ لزيدٌ منطلقٌ . و علمتُ أزيدٌ عندك أم عمرو و أيُّهم فى الدار ؟ . و علمت ما زيدٌ بمنطلقٍ، و لا يكون التعليق فى غيرها . ([1])

- **سلامة الدلالة لا تقوم على الظاهر:**

يذكر الزمخشري أن التركيب النحوي لا تُدرك دلالته المقصودة بالاكتفاء بظاهر الشكل؛ إنما وجب على المتلقِّي التعمق وصولًا إلى البنية العميقة، التي حمَّلها المؤلِّفَ قصدًا ما إلى المتلقِّي، حتى و إن بدا ظاهر التركيب متنافرًا غير منتظم . والنص القرآنى قد يخفى فيه المعنى، إذا ارتكز المتلقى على ظاهره، و لم يلج دواخله و أسراره، و الزمخشري يقف عند هذه التراكيب، ليبين لنا وجه التلاؤم بينها، جاء في الكشَّاف في قوله – تعالي: " ص و القرآنِ ذى الذكر . بل الذين كفروا في عزَّةٍ و شِقاقٍ . ([2]) يقول: " فإن قلت: قوله – تعالي: " ص و القرآنِ ذى الذكر . بل الذين كفروا في عزَّةٍ و شِقاقٍ . ([3]) كلامٌ ظاهره متنافرٌ غيرُ منتظمٍ، فما وجه انتظامه ؟ .

قلتُ: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدِّي و التنبيه على الإعجاز . ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدِّي عليه، قال: و القرآن ذى الذكر إنه لكلام مُعجزٌ .

والثاني: أن يكون (ص) خبرَ مبتدإ محذوف على أنها اسم السورة، كأنه قال: هذه ص، يعنى: هذه السورة التي أعجزت العرب، و القرآن ذى الذكر، كما تقول: هذا حاتمٌ و الله . تُريد هذا هو المشهور بالسخاء و الله أعلم .. و معناه: أقسم بالسورة الشريفة و القرآن ذى الذكر، كما تقول: مررتُ بالرجل الكريم، و بالنسمة المباركة، و لا تُريد بالنسمة غيرَ الرجل . ([4])

وقد لحق التركيب – شكلًا و دلالة – تطوُّر على يد الزمخشري؛ فقد كانت الإفادة شرط التركيب اللغوي التام، كما نجد ذلك عند الرضى و ابن هشام الأنصاري؛ حين ذهبا إلى أن التركيب قولٌ مفيدٌ بقصده، و قصدوا بالإفادة أن يكون دالًا / حاملًا لمعني يمكن السكوت عليه؛ بخلاف الجملة التي تشير عندهم إلى الفعل و فاعله، و ما كان بمنزلتهما – و يقصد به ما يُصيب عناصرها الأولية من تغيُّر، أي صورة من صور التغيُّر.

و التركيب النحوي القرآنى قائم على انسجام المعاني، و دقة الصلة بين كل كلمة و أختها، بحيث يتحقق معيار التناسب اللفظى و الدلالي، و إن أوهم الظاهر خلاف ذلك، تصدى له الزمخشري ليبينه، كما فى قوله – تعالي: " يا أيُّها الذين آمنوا اعبدوا ربَّكم الذى خلقكم و الذين من قبلكم لعلَّكم تتقون".([5])

يقول الزمخشري – بعدما أبان أن الله – تعالي – وجَّه خطابه عامة، و لم يقصره على المؤمنين، بل غلَّب المخاطبين على الغائبين فى اللفظ و المعنى: " فهلَّا قيل: تعبدون لأجل اعبدوا . أو اتَّقوا لمكان تتقون . ليتجاوب طرفا النظم ؟ . قلتُ: " ليست التقوى غير العبادة، حتى يؤدِّى ذلك إلى تنافر النظم، و إنما التقوى قصاري أمر العابد و منتهى جهده، فإذا قال: اعبدوا ربَّكم الذى خلقكم " . للاستيلاء على أقصى غايات العبادة، كان أبعث على العبادة و أشدَّ إلزامًا لها، و أثبتَ لها فى النفوس، و نحوه أن تقول لعبدك: احمل خريطة الكتب؛ فما ملكتك يمينى إلَّا لجرِّ الأثقال، و لو قلت: لحمل خرائط الكتب . لم يقع من نفسه ذلك الموقع . ([6])

ثم يُضفي الزمخشري على التراكيب نوعًا من الاتساع، فقد تترابط الجمل بالعطف، أو بالاعتراض بغية الإيضاح، أو التفسير، أو التفصيل، أو الاحتراس، أو التخصيص، أو التقييد، أو غير ذلك من العلاقات

---

[1] انظر: المفصَّل فى علم العربية، للزمخشري، دار الجيل، (د . ط) بيوت، لبنان، (د . ت): ٢٦٢

[2] سورة ص: ١ - ٢

[3] سورة ص: ١ - ٢

[4] انظر: الكشَّاف ٤: ٦٧ – ٦٨

[5] سورة البقرة: ٢١

[6] الكشاف ١: ١٠٠

الدلالية، و هو – بذلك – يصل بالتراكيب المترابطة المتتالية إلى حد النص، وهو يعدُّ سابقًا في هذا المجال .

يقول – معلقًا على الآيات الثلاث – ٩٥/٩٦/٩٧ - من سورة الأعراف، وهي قوله – تعالي: " ثم بدَّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا و قالوا قد مس أباءنا الضراء و السراء فأخذناهم بغتةً و هم لا يشعرون . و لو أن أهل القري آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهلُ القري أن يأتيَهم بأسنا ضُحًى و هم يلعبون ". ([1]): " أفأمن أهل القري ". معطوفًا على قوله: " فأخذناهم بغتة "، كما يجعل قوله – تعالي: " ولو أن أهل القري ". إلى قوله: " يكسبون " . اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وكان العطف بالفاء؛ لأن المعني: فعلوا وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمِن أهل القري أن يأتيهم بأسنا بياتًا، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى، فنلحظ إشارته إلى ترابط الجمل و التراكيب بروابط العطف والسبب والنتيجة والعلة والمعلول، أو ارتبطت الجمل بالتكرير للتقرير والتأكيد، كما جاء قوله – تعالي: " أفأمنوا مكر الله " . تكريرًا لقوله – تعالي: " أفأمن أهل القري " . كل ذلك جعل الزمخشري سابقًا في إدراك أبعاد التركيب، من خلال إدراكه للعلاقات الشكلية والدلالية، التي تحكم السطح و (البنية المعيقة) .

- <u>التركيب النحوي و البعد الاجتماعي:</u>

انتخب الزمخشري من التراكيب النحوية ما يُمكن أن نسميه: التركيب الاجتماعي، وهو ذلك التركيب الذى يُراعى البعد الاجتماعي، والأعراف اللغوية فى صورته اللغوية، و مضمونه القضوى الذى يحمله، والفكر الجمعى السائد لدى جماعة لغوية معينة . ومن اختيارات الزمخشري فى هذا الأمر ما يلى:

- <u>وجوب أن يكون خبر (أن) الواقعة بعد (لو) فعلًا:</u>

ذكر الزمخشري أن (إن و لو) مما اختص بالدخول على الفعل، لطلبهما له؛ لذا وجب في أن الواقعة بعد (لو) أن يكون خبرها فعلًا، كقولك: لو أن زيدًا جاءنى لأكرمته، و نحو قوله – تعالي: " و لو أنهم فعلوا ما يُوعظون به " . ([2])، و لو قلت: لو أن زيدًا حاضري لأكرمته . لم يَجُزْ . ([3]) و ذكر أنك تقول: و الله إن أتيتنى لا أفعلُ كذا . بالرفع؛ و إنًّا و الله إن تأتنى لا آتك . بالجزم؛ لأن الأول لليمين و الثاني للشرط .([4]) والصواب: أنه يجوز في الجملة الأخيرة وجهان: الرفع و الجزم؛ وذلك لأنه قد تقدم تقدم الشرط والقسم ما يحتاج إلى خبر، وهو الضمير (إنَّا) . ([5])

- <u>حذف خبر لا النافية للجنس مطلقًا:</u>

ذكر الزمخشري أن بنى تميم لا يُثبتون خبر لا النافية للجنس أصلًا . ([6]) وقد قال ابن مالك: " ومن نُسب إلى تميم التزم حذف الخبر مطلقًا، فقد غلط؛ لأن حذف خبر لا دليل عليه، يلزم منه عدم الفائدة، والعرب مجمعون ترك التكلم بما لا فائدة فيه " . ([7])، و قال:

و شاع فى ذا الباب إسقاط الخبر إذا المُراد مع سقوطه ظهر.

وقد قال صاحب الكافية: والحقُّ أن بنى تميم يحذفونه وجوبًا؛ إذا كان جوابًا، أو كانت قرينة غير السؤال دالة عليه، و إذا لم تقم فلا يجوز حذفه رأسًا؛ إذ لا دليل عليه . ([8]) فإذا خفى المراد وجب ذكرُ

---

[1] سورة الأعراف: ٩٥، ٩٦، ٩٧

[2] سورة النساء: ٦٦

[3] المفصل: ٢١٦

[4] المفصل: ١٤٩

[5] التصريح على التوضيح ٢: ٢٥٣

[6] شرح المفصل، لابن يعيش ١: ١٠٧

[7] انظر: همع الهوامع بشرح جمع الجوامع، للسيوطى، تحقيق د: عبد الحميد هنداوى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د . ت) .١: ١٤٦ – ١٤٧

[8] انظر شرح الكافية فى النحو (لابن الحاجب)، تأليف: الرضى، ط١، دار الكتب، بيروت، لبنان، (د . ت) ١: ١١٩ - ١٢٠

الخبر عند الجميع. يقول ابن هشام فى المغني: " و السابع من خصائصها: إنه يكثر حذف خبرها إذا عُلِم . ([1])

- اختيار الزمخشري للأوزان الصرفيَّة المهجورة:

و قد أجاز الزمخشري سبق الأفعال بالهاء، ومما يُزاد في الوزن الصرفي، لكن الرضى خطَّأ الزمخشري، فقال: و ما حكى الزمخشري من قولهم: ها إنَّ زيدًا منطلقٌ . و ها أفعلُ كذا، مما لم أعثر له على شاهد . ([2]) وقد ذكر الزمخشري أن الفعل الذى يدخل على (أنَّ) المفتوحة الهمزة (المشددة أو المخففة) يجب أن يُشاكلها في التحقيق، كقوله – تعالي: " أفلا يروْن ألَّا يرجعُ إليهم قولًا و لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا ". ([3]) فإن لم يكن كذلك، نحو: أطمع وأرجو و أخاف؛ فليدخل على أن الناصبة للفعل للفعل . ومن رفعه فعلى (أنْ) مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال . ([4])

- جواز دخول الباء الشبيهة بالزائدة على خبر ما الحجازية:

وقد ذكر الزمخشري أن دخول الباء في خبر (ما) نحو: ما زيدٌ بمنطلقٍ . إنما يصح على لغة أهل الحجاز، لأنك تقول: زيدٌ بمنطلقٍ . علمًا بأنه لا يختص دخول الباء في خبرِ (ما الحجازية) بل تدخل في خبر (ما التميمية)، و منه قول الفرزدق (التميمي):

لعمرك ما معنٌ بتارك حقّه ولا منسئ معن و لا متيسر .([5])

وهو – هنا – لا يُعنى بالصياغة الشكلية، إنما يُشير إلى اللغة العرفية، التي تشيع فى قوم، من دون غيرهم، لغة يألفونها، ويعبرون بها عن أغراضهم، وكأنه يُقيم نظرية خاصة فى التواصل، يحاول المتكلم فيها أن يُنشئ علاقة عرفية دلالية مع السامع أو القارئ، نظرية ترتكز على الاستعمال . ([6])

- تعلق عمل الحروف العاملة إلَّا للاختصاص:

يذكر أن الحرف لا يعمل إلَّا إذا كان مختصًّا بالاسم أو الفعل، و لذا فهو يرى أن ما ذهب إليه التميميون أقيس، في إهمال ما، التي يُعملها الحجازيون، قال: و لغة الحجازيين أفصح، و هي المقدمة؛ لأن التنزيل ورد بها؛ و لغة تميم أقيس؛ لأنها جارية على أصل كثير النظائر في اللغة، و هو ترك إعمال المشترك " . ([7])

- التركيب البليغ:

يوازن الزمخشري بين التراكيب النحوية من ناحية التركيب البليغ، حين يكون فيه تخصيصٌ للدلالة، كما فى قوله – تعالي – على لسان سيدنا لوط – عليه السلام: " قال إنِّى لعملكم من القالين " . ([8]) فيقول: و(من القالين) أبلغُ من أن يقول: إنِّى لعملكم قالٍ . كما تقول: فلانٌ من العلماء . فيكون أبلغَ من قولك: فلانٌ عالمٌ . لأنك تشهد له بكونه معدودًا فى زمرتهم، ومعروفةً مساهمتُه لهم فى العلم .([9])، وينتج عن بلاغة التركيب بُعد جماليٌّ له وظيفتان مركزيتان، هما:

(أ) الوظيفة البنائية: التى تتحكم فى نسق الخطاب، أى: بناء عناصره و مكوناته، ضمن تنظيم و ترتيب يستقل بهما الخطاب المفرد عن غيره من الخطابات .

(ب) الوظيفة الدلالية: إذ إن بناء التركيب على نسق جميل يدعم جمال دلالته، و لطريقة إنتاج معناه . و يُضاف إلى ذلك وظيفة أخرى ثالثة، و هى الوظيفة الجمالية، و تتمثل هذه الوظيفة فى أمرين، هما:

١- إنتاج طاقة تأثيرية تنقل المتلقى من حال اعتيادية إلى حال تموج بالحركة والنغم، وتمدُّه بطاقة نفسية تهديه إلى المغزى .

---

[1] انظر: مغنى اللبيب: ١٩٩

[2] انظر: شرح الكافية ٢: ٤٢٢

[3] سورة طه: ٨٩

[4] انظر: الكشَّاف، ٣: ٧٤

[5] المفصل: ٢٤١

[6] انظر: التحليل اللغوى للنصوص، تأليف: كلاوس برينكر، ترجمة د: سعيد حسن بحيرى، ط٤، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م: ٢٤

[7] أعجب العجب في شرح لامية العرب، ط٢، ١٣٢٤هـ: ١٥

[8] سورة الشعراء: ١٦٨

[9] الكشَّاف ٣: ٢٩٢

٢- تحقيق ما يُعرف باسم: لذة التركيب، التى تظهر فى إحساس المتلقى بتحقق التلازم والانسجام بين الأشكال والمعانى، بين التركيب والقصد، بين النغمات والمعنى المُراد . ([1])

رابعًا: الخاتمة، و فيها:

(أ) أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

تجلّت مظاهر الإعجاز في التركيب النحوي عند الزمخشري فيما يلى:

- **خضوع التركيب النحوي لضوابط النحو وسمو المعنى وجمال البلاغة، مع إمكان التحرر من قيود النحو العنيفة، مراعاة لسياق التركيب وأفق التلقّي لدى متلقى التركيب النحوي . وفي هذا التحرر فصلٌ بين المعنى والقصد والاستجابة لضوابط اللغة المقيِّدة . حيث تبحث رؤيته عمّا وراء الصناعة النحوية الموضوعة .**
- **برزت قدرة الزمخشري على التفاعل مع التركيب النحوي الذى جمع بين الصحة والجمال واللذة وأحيانًا الصدمة .**
- **تجلت مظاهر الإعجاز في التركيب النحوي عند الزمخشري في أنه قد جاء صحيحًا ومستقيمًا وجائزًا، وحسنًا وقويًا، ومقبولًا، و مراعيًا أفق الانتظار لدى المتلقي، ومحققًا للانفتاح الدلالي، وخاضعًا للسياق في تحديد دلالته .**

(ب) أهم التوصيات:

- **يوصى البحث بما يلى:**

(ا) دراسة العلاقة بين التركيب النحوي و السياق عند الزمخشري خاصة .

(ب) دراسة أثر البعد النفسي في توجيه التركيب النحوي عند الزمخشري .

وأخيرًا: فإني لأرجو الله - تعالى - أن يمُنَّ علىَّ بنعمة الإخلاص في القول و العمل، وأن يكون عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، ينتفع به أبناء العربية، إنه ولى ذلك و القادر عليه .

الباحث:

دكتور: حمدي علي بدوي

[1] انظر: نظرية القوة الإيقاعية فى الخطاب اللغوى، د: حازم على كمال الدين، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٢م: ١٢٧ - ١٢٨

ثبت المصادر و المراجع

- الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطي، و بالهامش: إعجاز القرآن، للقاضى أبى بكر الباقلاني، (د . ط)، دار نهر النيل، (د . ت) .
- أعجب العجب في شرح لامية العرب، لفخر خوارزم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة لسان العرب، ط٢،على نفقة: محمود أحمد، بنظارة الأشغال، بمصر، ١٣٢٤هـ .
- بلاغة الخطاب و علم النص، د: صلاح فضل، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٦م .
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري، د: محمد أبو موسي، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ .
- بناء الجملة العربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د . ط)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣ م .
- البُنى النحوية، تشومسكى، ترجمة، د: يؤيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، ط١،دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م .
- بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، (ط٤)، دار المعارف، القاهرة، (د . ت) .
- البيان في روائع القرآن، د: تمام حسان، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- التحليل اللغوى للنصوص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية و المناهج، تأليف: كلاوس برينكر، ترجمة د: سعيد حسن بحيرى، ط٤، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .
- التعريفات، للجرجاني، المتوفي (٨١٦ هـ)، تحقيق: نصر الدين تونسي، ط١، شركة القدس للتصوير، ٢٠٠٧ م .
- الجملة العربية و المعنى، د: فضل صالح السامرائي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م: ٨٦ و ما بعدها .
- الحروف، لأبى نصر الفارابي، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدى، أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد، بحوث و دراسات رقم (٤٦) كلية الآداب و العلوم الإنسانية، بيروت لبنان، ط٢، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م .
- خزانة الأدب و لب لباب العرب، لعبد القاهر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م، و ط١، دار صادر، بيروت، ١٤٠١هـ\ ١٩٨١م .
- الخصائص، لابن جنى (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد على النجار، (د . ط)، دار الهدى، (د . ت)، لبنان، بيروت .
- الخطاب التفاعلى، تأليف: ك، ك، أوركيونى، عرض: حاتم عبيد، مجلة فصول، ع ٧٧ .
- الدراسات النحوية و اللغوية عند الزمخشري، للدكتور: فاصل صالح السامرائي، (د . ط) مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي،القاهرة، ١٩٨٥هـ .
- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: سيد حنفى حسنين، (د . ط)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م .
- شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق: محمد عبد القاهر عطا وطارق فتحي السيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .
- شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهرى، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م .
- شرح الرضى على الكافية فى النحو، تصحيح و تعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريوس، ١٣٩٨هـ\ ١٩٧٨م .

- شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلى (ت ٦٦٩ هـ) تحقيق: صاحب أبو جناح، ط١، وزارة الأوقاف العراقية، ١٩٨٠م .
- شرح شذور الذهب، لابن هشام الأنصاري (المتوفَّى ٧٦٢ هـ)، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، (د . ط) دار الطلائع، القاهرة، و مكتبة الساعي، الرياض، ٢٠٠٤ م .
- شرح كتاب سيبويه (للسيرافي)، تحقيق د: رمضان عبد التواب، (د . ط) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م .
- شرح الكافية فى النحو، لابن الحاجب، تأليف: الرضى، ط١، دار الكتب، بيروت، لبنان،(د . ت) .
- شرح المفصل، لابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، و مكتبة المتنبي، القاهرة، (د . ت) .
- الصحاح، للجوهرى، تحقيق: أحمد عبد الغفور عكار، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م .
- علم الدلالة المقارن، د: حازم على كمال الدين، (د . ط)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م .
- علم اللغة الاجتماعي، د: كمال بشر، (د . ط)، دار غريب للطباعة و النشر، القاهرة، (د . ت) .
- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) تأليف: تون .أ . فان دايك، ترجمة د: سعيد حسن بحيرى، ط ٢، دار القاهرة، مصر، القاهرة، ٢٠٠٥ م .
- الفصل النحوي بين مطالب التركيب و قيم الدلالة، د: عبد العزيز موسي على، مجلة دراسات، للعلوم الإنسانية و الاجتماعية،كلية الأميرة عالية، جامعة البلقاء، المجلد ٣٣، العدد ١،المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦م .
- فقه اللغة المُقارن، الدكتور إبراهيم السامرائي، (د . ط) م٤، دار العلم للملايين، ط ١٩٨٧م .
- في نحو العربية و تراكيبها، د: خليل أحمد عمايرة، ط١، عالم المعرفة، جدة، السعودية، ١٩٨٤م .
- قواعد تحويلية للغة العربية، لمحمد على الخولى، (د . ط) دار المريخ، الرياض، السعودية، ١٩٨١م .
- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوقى ١٧٥ هـ) تحقيق د: مهدى المخزومي، و د: إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام، ج ٥، العراق، (د . ت) .
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
- الكشَّاف، لجار الله الزمخشري، شرح و ضبط و مراجعة: يوسف الحمادى، ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م .
- لسان العرب،لابن منظور، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، د: محمد خطابي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م .
- اللغة العربية معناها و مبناها، د: تمام حسان، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٢م .
- لغة القرآن الكريم (دراسة في التركيب النحوي لسورة يس)، تأليف: صبري إبراهيم السيد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١ م .
- اللغة المعيارية و اللغة الشعرية، تأليف: يان موكاروفسكى، تقديم و ترجمة: ألفت كمال الروبى، مجلة عالم الفكر، ع ٣، المجلد: ٣٧ يناير / مارس، ٢٠٠٩م: ٤٠
- اللغة و بناء الشعر، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (ط١) دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م .
- المختصر فى تاريخ البلاغة، د: عبد القادر حسين، ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م .
- مسألة في كلمة الشهادة، للزمخشري، فاضل صالح السامرائي، مخطوطة مصورة في مكتبة برلين، تحمل رقم، ٢٤٠٦١) في كتابه: الدراسات النحوية و اللغوية عند الزمخشري، (د . ط) مطبعة الرشاد، بغداد، العراق، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

- المعجم الوسيط، تأليف: عبد الوهاب السيد عوض الله و آخرين، (د . ط) مطابع الأفست، شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٩٨٥م .
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: د: صالح عبد العظيم الشاعر، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .
- المغني في أبواب التوحيد و العدل، للقاضى عبد الجبار الهمذاني، تحقيق: محمود الخضيري، و محمود قاسم، مراجعة: إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٣٨٥هـ .
- مفتاح العلوم، للسكاكى، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ \ ١٩٨٧م .
- المفصَّل فى علم العربية،، لجار الله الزمخشري، تحقيق: على بو ملجم، ط ٢٠٠٣ م، دار الهلال .، ودار الجيل، (د . ط) بيروت، لبنان، (د . ت).
- مفهوم التبليغ و بعض تجلياته التربوية في التراث اللساني، د: بشير إبرير، مجلة التراث العربي، مجلة شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٩٩/ ١٠٠ – السنة الخامسة و العشرون – تشرين الأول ٢٠٠٥م / رمضان ١٤٢٦هـ .
- مفهوم التماسك و أهميته في الدراسات النصية، جمعان عبد الكريم، مجلة علامات في النقد، مج ١٦ ج ٦١، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ / مايو ٢٠٠٧م.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره فى البلاغة المعاصرة، م عالم الفكر، م ٢٨، ع ٣، يناير/ مارس، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- مفهوم اللغة عند البنيويين، د: إحسان عبد القدوس، صحيفة دار العلوم، العدد (٣٦) رجب ١٤٣١هـ يوليه ٢٠١٠م، الإصدار الرابع، السنة الثامنة عشر (جماعة دار العلوم) .
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق د: على عبد الواحد وافى، طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م. .
- مقدمة في تعريف اللسانيات (بحث على شبكة المعلومات الدولية) نسخة: pdf Lissaniat.net / view p =
- نحو النص فى ضوء التحليل اللسانى للخطاب، د: مصطفى النحاس، ط١، ذات السلاسل للطباعة و النشر، الكويت، ٢٠٠١ م .
- النحو و الدلالة، د: محمد حماسة عبد اللطيف، ط١، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- النص و الممانعة (مقاربات نقدية فى الأدب و الإبداع) د: محمد راتب الحلاق، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م، نسخة { pdf } .
- نظرية القوة الإيقاعية فى الخطاب اللغوى، د: حازم على كمال الدين، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٢م .
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د: نهاد الموسي، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٧م .
- همع الهوامع بشرح جمع الجوامع، للسيوطى، تحقيق د: عبد الحميد هنداوى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د . ت) .